المجلد الاول　　الجزء ٦　　السنة الاولى

الفجر

1338

محل ادارة المجلة	اجرة الاعلانات	قيمة اشتراكها
شارع باب البنات ٤٦ بتونس	يتفق فيها مع الادارة	عن سنة ستون فرنكا

تونس - اول جانفي ١٩٢١ § الموافق ٢١ ربيع الثاني ١٣٣٩

مجلة علمية عمرانية اخلاقية تصدر مرة في كل شهر

يحررها نخبة من علية الكتاب

« فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه »

« اولئك الذين هداهم الله واولئك هم أُلو الالباب »

« قرآن شريف »

مطبعة النهضة - نهج الجزيرة عدد ١١ - تونس

بسم الله الرحمن الرحيم

حاجتنا الى اللغة الفرنسية

وبقية اللغات الحية

تختلف عقولنا في ادراك الفائدة من اللغة الفرنسية وسائر اللغات الحية كما تختلف في كثير من الامور العامة تبعا لفقدان «وحدة التربية». فمنا من لا يزال يعتقد ان لا فائدة من تعلم اللغة الفرنسية وانا في غنية تامة عن اقتباس العلوم الحديثة من الامم الاروبية لتحقيق نهوضنا. بل ربما توهم ان تعلم اللغة الفرنسية لا سيما اذا استتبع تعاطي الفلسفة او الطبيعة او نحوهما مما يضر بالتربية والدين، ولو سالتهم تعليل ذلك او شرح حقيقة الفلسفة او الطبيعة لرايت امراً عجبا يدعوك الى حمد عقلك ورشدك. وهؤلاء هم الذين لم تستنر بصائرهم بعلم التاريخ والاجتماع فضلوا يرون الحقيقة معوجة وينظرون الى العالم ببصيرة كسم الخياط

ومنا من يحسب الفائدة من تعلم اللغة الفرنسية في امكان بذل حريته لاحدى المصالح الادارية. ووصوله الى شهواته الصبيانية. وتعاليه على الجاهلين بها من قومه. وانتسابه الى التمدن في عرف مخيلته الضالة.

وهؤلاء هم الذين حرموا التربية الصحيحة والاطلاع على تاريخهم المجيد ولم يعرفوا من اللغة الفرنسية إلا الفاظا او تراكيب اعتيادية لا ينشطون معها على مطالعة الجرائد والمجلات فضلا عن المولفات العلمية او الادبية لعلهم يعتبرون . فتراهم ينقطعون عن التعلم متى ختموا الدروس الابتدائية او بعد تناول اليسير من الدروس الثانوية ويضلون يقتلون اوقاتهم النفيسة فيما يحزن ويبكي وهم لا يدرون ما يفعلون ـ

ومنا من يعتقد انحصار الفائدة من تعلم اللغة الفرنسية في التخلص من الخدمة العسكرية سواء بالتحصيل على الشهادة الابتدائية او قضاء الامتحانات العسكرية . ولذا لا يتاخر في سحب ابنه من التعليم بمجرد حصول ذلك الغرض . ومن هذا الفريق من يفضل عدم تعلم ابنائهم بها على تحصيل هذا الغرض على شدة تعلقهم به . ولا شك ان هؤلاء يلتحقون بالقسم الاول في توهم مساس اللغة بالتربية والدين وهم معذورون بعاميتهم السوداء ونحن مسئولون امام الانسانية والتاريخ على عدم السعي في في ابادتها وتثقيف الافكار بالدعوة والارشاد ـ ومن هنا نرى مع غاية الاسف دروس اللغة الفرنسية بالمدرسة الخلدونية تحوات الى دروس تحضيرية ضيقة لمساعدة الراغبين في جواز الامتحان العسكري بعد ان كانت علمية راقية يمكنها تخريج متعلمين باللغة الفرنسية يفوقون اصحاب الشهادة الابتدائية ، وترى الدروس الليلية التي رتبتها الحكومة بعدة جهات من العاصمة لتعليم اللغة الفرنسية لا يحضرها إلا القليل جدا حتى تكاد تبطل تماما بينما تجد الملاهي والمنازل العامة ملاٴى بالكسالى والاميين اما بقية اللغات الحية كالانكليزية والالمانية والايطالية فلا تكاد

تجد من يشعر لتعلمها بثمرة . فترى الواحد من ابنائنا يزاول احداها باللسي كارنو وهو كاره مشمئز ولولا شروط الامتحان لما اختار ان يتعلم منها حرفا . ولذا يخرج وهو لا يعرف منها شيئا يذكر - وتود ان تجد متعلما تخرج باحدى المدارس الايطالية لينبئك عن اخلاق وآداب امة يعاشرنا من ابنائها عدد عديد فكانك تطلب محالا فضلا عمن يترجم لك شيئا من كتبها او جرائدها . فعشنا لا نعلم من شئونها اكثر مما نشاهده باعيننا . وفاتنا ان نقرأ ما يكتب على صحفها وننقل منه ما يفيدنا الى لساننا كحالنا مع الفرنسية - كانت اللغة الايطالية واللغة التركية مما يدرس بالمدرسة الصادقية فنبغ فيهما مثل المرحوم الصحفي الشهير علي بوشوشة وتمكن بهما من ترقية صحيفته « الحاضرة » فلما اقبرتا لم ناسف عليهما من اصل كونهما لغتين من لغات المدنية بل اسفنا على التركية فقط لانها تركية

ليست الفائدة من اتقان اللغة الفرنسية وسائر اللغات الحية ما يشعر به كثير منا . فانا نحتاج الى تلك اللغات خصوصا الفرنسية في اهم شؤوننا الحياتية ، ولنبين ذلك باعتبار الدين - واللغة - واركان المدنية - والحالة الادبية - والحياة الاجتماعية فنقول :

(١) حاجتنا اليها دينيا :

بعد انتشار المدنية والعلم باروبا اصبح العلماء والفلاسفة يبحثون بحثا متواصلا عن الاديان وأثرها في السعادة البشرية ، فالفوا الجمعيات الكثيرة وعقدوا المؤتمرات العديدة وكتبوا وقالوا ما شاؤوا مما اوصلهم اليه البحث والتنقيب وخصصوا لذلك الابواب الواسعة بالمجلات الدورية ولربما اخطاوا في فهم حقيقة من حقائق الدين الاسلامي فعدوها عليه .

او اعتقدوا منه ما يرونه من بعض ضلالات اهله وان لم يجدوه بين احضان القراءان والسنة حيث يتأولونه بالاجتهاد منا ـ فتتشوه حقيقة ذلك الدين في وجه من يجد في نفسه انعطافا نحوه. وينمو في النفوس بغض متبعيه ـ فهل يصح ان نبقى بعيدين عن تلك الحركة الكبرى كانها غير موجودة اصلا. ولو اتقن فريق منا تلك اللغات الحية لامكننا ان نخوض عبابها وندافع عن انفسنا ونبرهن كغيرنا على محاسن ديننا ـ انظر الى جهاد محمد فريد وجدي في هذا الموضوع وكتابه « المدنية والاسلام » الذي وضعه اولا بالفرنسية لتطبيق النواميس الدينية على اصول المدنية وتعريف العالم الاروبي بتعاليم الدين الاسلامي ـ والى نضال المرحوم الشيخ محمد عبده وكتابه « الاسلام والنصرانية » في المقابلة بين الدينين ـ فهل تيسرت لهما خدمتهما الجليلة إلا بمعرفة اللغة الفرنسية ـ لا ابعد بك ايها القاري الى اروبا ففي عاصمتنا هاته كثيرا ما تلقى المسامرات الدينية في تاريخ الانبياء او اصول بعض الديانات او غير ذلك مما لا يحسن الجهل به فيقرأ اخبارها على الصحف القليل منا وقد لا يرى اهمية لحضورها لضعف العاطفه العلمية فينا

اني لا تذكر ههنا قول السيد رشيد رضا « ان الاوربيين كروا كرة على الاسلام فاخذوا منه آدابه واخلاقه واخشى ان يكروا كرة اخرى فياخذوا عقائده فلا يبقى لنا حظ معهم »

(٢) حاجتنا اليها لغويا :

لا معنى لحياة اللغة بعد كونها مضبوطة بما تحتاجه من القوانين النحوية والصرفية وغيرهما إلا استيفاؤها ثلاثة امور : كثرة الناطقين بها ـ واتساع

صدرها لقبول العلوم على اختلافها . واحتواؤها على ما يحتاج اليه من العلوم والفنون

فلننظر في توفر هاته الامور للغة العربية حتى نعطيها ذلك اللقب الشريف . اما الامر الاول فلا تحقق له اصلا لان العربية الصحيحة لا يتكلم بها اليوم إلا بعض القبائل بجزيرة العرب واهالي جهات مخصوصة من سوريا . وسكان بقية الاقطار العربية يتكلمون في سائر مخاطباتهم الاعتيادية بخليط من عدة لغات قد تربوا فيه الالفاظ العربية على سواها وان كانت العربية هي الرسمية ولغة العلم . ولو وفق المتعلمون منهم الى استدامة مخاطبة أبنائهم ومعاشريهم بالعربية لامكن بطول الزمن تغلبها على الامية . لكن انى لنا بهذا ومتعلموها لا يهتمون بمصلحتها وغيرهم يعدون التكلم بها تقعرا او فضولا

واما الامر الثاني فهو متوفر في الجملة للغة العربية لكن يلزم ان يتكون مجمع لغوي علمي من مطلعين على لغات اروبا الحية ومتضلعين في اللغة العربية لترجمة او تعريب الاسماء والتراكيب والمصطلحات العلمية الحديثة ونشرها على صفحات المجلات واستعمالها حتى تصبح مالوفة في اللغة العربية ، واذا ما اقتصرنا على الاوضاع التي نقلت لنا عن العرب العرباء وقلنا ان اللغة تضيق عن احتمال ما لا يعرفه اهلها الاصليون . كان وزر ذلك علينا لا على اللغة لانها كائن حي قابل للنمو والتطور مع الانسان وكيف احتملت المدنيات القديمة وكانت حلقة اتصال بينها وبين المدنية العصرية . نعم قد تاسس نحو ذلك المجمع بمصر منذ سنوات وانحل ولم ينتج نتيجته المطلوبة . ورايت اخيرا بجريدة الاخبار المصرية ان نظارة

المعارف قررت تدريس الطب في المستقبل باللغة العربية بدل الانكليزية فقدم مدير مدرسة الطب (وكان انكليزيا) تقريرا طويلا يعترض فيه على ذلك القرار إلاّ انه اعترف فيه انه لا يستند في اعتراضه الى ضيق اللغة العربية عن المصطلحات الطبية ولكن الى كلفة ترجمة الكتب الى العربية وصعوبة اقتنائها ولزوم انقطاع المتعلمين حينئذ عن الحركة العلمية الطبية بالمجلات الاوربية . فلم ترجع النظارة في قرارها ولكنها قررت تعليم الطلبة اللغة الانكليزية والقاء محاضرات عليهم في الاكتشافات الطبية تنشيطا لهم على المطالعة فيها

واما الامر الثالث فهو موقوف على ما نبذله من الهمة في نقل تلك العلوم الكثيرة النامية التي هي اساس مدنية وعظمة اوربا . ومن هنا اهتم المسلمون في العصر العباسي بالترجمة اعتناء عظيما حتى عدّ ليعقوب الكندي وحده ٢٥٦ كتابا بين مترجم ومؤلف في الفلسفة والهندسة والطبيعيات والنجوم والطب والجدل والسياسة والحساب والموسيقى والمنطق وغيرها

ولما اراد عزيز مصر محمد علي باشا النهوض ببلاده وقومه كان في جملة ما فعله انه اسس سنة ١٢٥١ ـ هـ مدرسة الالسن لتخريج المترجمين الذين تحتاجهم الامة في نقل مدنية اوربا اليها ـ وفي سنة ١٢٥٨ ـ هـ تشكل قلم الترجمة من اول فرقة تخرجت منها

فقد رايت توقف اللغة العربية في اهم اركان حياتها على اللغات الحية الاوربية ، افبعد ذلك يخالجك الشك في وجوب درسها واتقانها كوسيلة من وسائل النهوض العظمى

وفوق ذلك فان كل لغة من تلك اللغات مختصة بافانين من البلاغة

والخيال والادب اذا عرفناها تسنى لنا ادخالها على لغتنا فتزيدها قيمة وجمالا . ولهذا كانت كتابة ابناء المدارس بمصر ارقى من كتابة الازهريين وقالوا ان الشيخ محمد عبده صار يكتب بعد معرفة الفرنسية ارقى مما كان يكتب قبلها ـ وقال المرحوم الشيخ عبد الحميد الزهراوي ان التركية ادخلت على انشائه رقيا محسوسا

واعظم من ذلك ان التاليف في العربية يتوقف احيانا على اللغات الاروبية . ذكروا ان جرجى زيدان لما ازمع التاليف في تاريخ آداب اللغة العربية وكان يحسن الانكليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات الشرقية وجد نفسه محتاجا في ذلك الى اللغة الالمانية فعكف على دراستها وصار يطالع فيها في ظرف اشهر حيث امكنه العمل . ولذا ترى بين مآخذه في التمدن الاسلامي وتاريخ آداب اللغة العربية وغيرهما جملة كثيرة من مؤلفات تلك اللغات ـ وهل تظن ان بطرس البستانى لم يكن محتاجا الى الانكليزية والايطالية واللاتينية وغيرها مما كان يحسنه اثناء تاليف دائرته العظمى التي هي الاولى عن نوعها في العربية

(٣) حاجتنا اليها في اركان المدنية

المدنية تعتمد اركانا اربعه : العلم ـ والتجارة ـ والزراعة ـ والصناعة

العلم ـ ١ ـ اقتضت سنة العمران ان يشرق في جهة دون اخرى فتنقله الثانية عن الاولى وتكون الامم اساتذة بعضها فيه . قال جرجي زيدان « نقل العرب خلاصة ابحاث رجال العلم والفلسفة والادب في ممالك التمدن القديم . وفيها زبدة علوم الاشوريين والبابليين والفينقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . اخذوها عن اليونان والفرس والهنود

والكلدان وغيرهم وجمعوا اشتاتها في العربية وزادوا فيها ورقوها . ويلاحظ ان العرب نقلوا من علوم تلك الامم في قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون » ومنذ القرن السادس عشر اخذ الاوربيون في التعلق باسباب المدنية فاخذوا ينقلون تلك العلوم عن العرب وتوسعوا في الترجمة فترجموا حتي الكتب الدينية والشعر ولا يزالون يترجمون الى اليوم . إلاّ ان تلك العلوم قد ارتقت عندهم درجات عظمى واصبحت غير ما بالكتب العربية القديمة . وهل من سبيل الى الوقوف عليها والانتفاع بها غير اجادة لغاتها واخذها عن اهلها . لذا اهتم محمد علي باشا عند ما اراد خير مصر بارسال البعثات الى اوربا فارسل اول بعثة سنة ١٢٤١ - ﻫ وكانت مؤلفة من ١٣٧ طالبا ثم والى البعثات حتى بلغ عدد الطلبة الذين ارسلهم ٢٩٠ طالبا جملة ما انفق عليهم ٢٧٣٫٣٦٠ جنيها وارسل عباس باشا بعده ٤٨ طالبا انفق عليهم ٨٢٩٢٣ جنيها وارسل اسماعيل باشا ١٥٥ طالبا انفق عليهم ١٫٣٣٧٫٣٨٦ جنيها وارسل توفيق باشا ٣٤ طالبا وعلى عهد توفيق هذا توقفت الامة الى الارسال على نفقتها فبلغ عدد ما ارسلته اذ ذاك ٨٣ طالبا وفي سنة ١٩١٠ كان عدد المصريين المتعلمين في فرنسا وسويسرا والمانيا وبلجيكا وانكلترا وايطاليا واميركا والاستانة وبيروت ٧٤٠ طالبا منهم ٥٩ على نفقة الحكومة و - ٦٨١ - على نفقة آبائهم . ولا شك ان هاته البعثات العظيمة كانت من اعظم اسباب النهضة المصرية الحديثة

ولكي يتضح لكم مقدار الحركة العلمية المدهشة في العالم المتمدن

وتتشخصوا ما وصلت اليه تلك اللغـات من الغنى العلمي العجيب انشر لكم ما قراته بهلال نوفانبر ج ٢ ـ ٢٩

« ما صدر من الكتب والمطبوعات في السنين الاخيرة بنـاء على آخر الاحصاءات

الـدول	١٩١٣	١٩١٤	١٩١٥	١٩١٦	١٩١٧	١٩١٨
المانيـا	٣٥٠٧٨	٢٩٣١٨	٢٣٥٥٨	٢٢٠٢٠	١٤٩١٠	١٤٧٤٣
اليابـان	١٨٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٣٠٠٠	٢٤٠٠٠		
انكلترا	١٢٣٧٩	١١٥٣٧	١٠٦٥٥	٩١٤٩	٨١٣١	٧٧١٦
فرنسا	١١٤٦٠	٨٩٦٤	٤٢٧٤	٥٠٦٢	٥٠٥٤	٤٤٨٤
ايطاليا	١١١٠٠	١١٥٢٣	١١٤٣١	٨٦٤١	٨٣٤٩	٥٩٠٢
الولايات المتحدة					١٠٠٦٠	٩٢٣٧

التجارة ـ٢ـ كل من له المام بالاحوال العامة يعلم ان مسائل التجـارة والاقتصاد اصبحت متحكمة في المجاري السياسية بدل الاحقـاد الطائفية او اكتساب السيادة الوهمية او المساعدة على مصلحة البشرية . فلا غرو ان احرزت تلك المسائل حظا وافرا من عناية الامم الراقية وصارت في مقدمة اركان الرقي والمدنية . فاسست لها البنوك والبورصات والشركات العظيمة ووضعت لها التراتيب والنظامات مما لا يخطر لنا على بال مادمنـا بعيدين على اللغات الحية ـ ومن ذلك ما هو بين اظهرنـا ونحن لا ندري منه شيئا فبقينا نعمل في دوائر ضيقة لا ارتقاء من ورائها الاعلى سبيل خرق العادة ونحن مع ذلك تحت رحمة غيرنا يقودنا كما شاء ويستفيد منا حتى ترضى مطامعه وشهواته . وغايتنا ان نصادف احيانا احصاء او خبرا عن احوال تلك الامم فنندهش لما يمثله لنا من عظمة الحركـة التجارية . وما

ذلك بالامر المدهش فامثاله في اروبا لا تحصى وفي كل يوم ينشر بالجرائد او المجلات الاقتصادية مايدهشك اطلاعهم عليه واحصاؤه قبل ان يدهشك مدلوله. ولكن حرماننا من ألسن المدنية جعل آثارها غريبة لدينا ـ ومما زاد الطين بلة ان صحفيينا لايعنون بترجمة مايفيدنا في حالتنا الاقتصادية كزملائهم المصريين. ولعل عذرهم ان اكثر من يحسن الفرنسية لا يحسن لغته العربية لسوء الحظ ونكد الطالع ـ قالو ان الشيخ محمد عبده سأل بعض التونسيين بباريس عن غرضه من العلم الذي تغرب في تعاطيه فاجاب ان اعيش في رفاهية فقال تعسا لهذا العلم كنت اظن ان تقول خدمة امتي العزيزة

الزراعة ـ ٣ ـ والصناعة ـ ٤ ـ

حظ هذين الركنين من اهتمام الامم الراقية ليس باقل من حظ الركن السابق كيف ومعظم التجارة في المصنوعات والنتائج الفلاحية. لذلك انشئت المصانع الكبرى والمعامل الضخمة وتسابق ارباب القرائح في ميدان الاختراع فظهرت مخترعات عظيمة كانت نتيجتها اتقان العمل او ربح الوقت او تقليل التعب او توفير الربح الى غير ذلك من مقتضيات رقي ذينك الامرين رقيهما العجيب حتى ذكروا ان عدد الاختراعات المختلفة بلغ في الولايات المتحدة من سنة ١٨٣٧ الى سنة ١٨٩٩ ـ ٦٢٥ الف اختراع ـ فلو اتقنا لغات المدنية لتسنى لنا الاستفادة من تلك الاختراعات واستعمال الالآت الحدثية فننتقل خطوات كبيرة في سبيل التقدم بصنائعنا وفلاحتنا

(٤) حاجتنا اليها ادبيا

لامراء ان الاذواق والعوائد تتهذب مع انتشار العلم والمدنية. والامم الراقية اليوم وان كان بين عوائدها واذواقها مالايلائمنا فمنها ايضا ما لو اطلعنا عليه لدفعنا حسنه الى اقتباسه منهم ولانزاع ان من عوائدنا ما يستحق التهذيب او الموت. فلنعرف لغاتهم لنطلع على كل شيء وناخذ ماينا سبنا. واعتبر ذلك فى توسع المسلمين على العهد العباسي في ترجمة كل ما وصلوا اليه من مؤلفات الاقدمين حتى مثل الاليادة - ان الانسان ليتسع فكره بالاطلاع على احوال الامم وآدابها فتقوى فيه ملكة التمييز وحسن الذوق ويتهيا لمنصب الارشاد وخدمة الانسانية وما اعتناء التاريخ بتدوين تلك الاحوال والآداب الالتحقيق هاتيك الاغراض الشريفة

(٥) حاجتنا اليها في حياتنا الاجتماعية

كل جنسين يعيشان على بساط واحد من الارض فلا ينتظم عيشهما وتعاونهما الحياتي حتى يفهم كل منهما لسان صاحبه. وما لم يكن ذلك يضل كل منهما يتهم الاخر ويرميه بما عسا لايكون بريئا منه وتذهب يوميا مصالح عامة اوخاصة ضحية سوء التفاهم

نركب بالقطار او نجلس باحد المجتمعات العامة اوننجول بالمتنزهات او نقف على مخازن التجارة او باحدى الادارات او نجتمع بغير ذلك من المنازل العمومية فنرى خلافات تقع بين افراد الجنسين قد تسوء عاقبتها وما سببها الا تعذر التفاهم غالبا - وفوق ذلك فانا قد نجتمع باستاذ اواديب او مؤرخ او رحالة او غيرهم من اهل العلم فيحرمنا جهلنا بلسانه من الاستفادة بعلمه واختباره - وزد على ذلك انا نمر بمحلات متعددة نرى عليها كتابة تشرح ما بداخلها ولربما ضيع علينا الجهل مصالح كثيرة

كنا نقضيها منها - واعتبر ذلك فيمن يريد طبيبا لاول مرة وهو واقف امام محله يتلهف على الاهتداء اليه الى غير ذلك من المصالح التي لا يمكننا ان نتمنا ان نرى العربية فيها بجانب الفرنسية

***

لايفهم مما تقدم اننا نتسامح في تضييع العربية او نتساهل في الحط من قيمتها فانها لغة الدين والوطن التي يجب ان يكون تعليمها اجباريا ليس هي فقط بل هي وآدابها اذا اردنا ان نحتفظ بقوميتنا كشعب له تاريخ ويريد ان يعيش في مصاف الامم الحية - كما لايفهم ان معرفتنا اللغات الحية هو كل منانا فان اللغات في حد ذاتها اصوات مجردة عن الفائدة وقيمتها بحسب ما توصل اليه من العلوم والفنون - ومرادنا ان لا تبقى العربية فقيرة من علوم المدنية الحديثة التي لا نقف عليها الا بمعرفة لغاتها - فاذا ما ساعدنا الحظ ونما شعور الامة فاسسنا مدارس ثانوية بالحاضرة ومدن الوطن العظيمة لا ننسى ان نضرب لتلك اللغات بسهم في تراتيبها - ولا نؤمل الان ان نؤسس مدرسة الالسن لان حاجتنا الى غيرها اشد . ومادمنا لم نؤسس تلك المدارس يجب علينا ان ننصح لابنائنا باعطاء تلك اللغات قسطها من الاهتمام، ولا يعسر علينا نحن اذا شحذنا عزيمتنا واستنجدنا هممتنا ان نتعلم تلك اللغات بمجرد الكد الشخصي فبطرس البستاني صاحب دائرة المعارف الكبرى (١٨٨٣) تعلم الانكليزية في ساعات الفراغ - وجرجي زيدان (١٩١٤) تعلم كلا من الفرنسية والانكليزية والالمانية في اشهر دون العام ورفاعة بك الطهطاوي (١٨٧٣م) الذي جاور بالازهر ٨ سنوات صار بعدها من طبقة العلماء الاعلام في الفقه واللغة والحديث

وسائر علوم المعقول لما ذهب الى باريس اماما وواعظا مع اول بعثة علمية مصرية (١٢٤١ هـ) تعلقت همته بالفرنسية فاكب على تعلمها حتى اجادها فهما واخذ يطالع ثم يترجم ويؤلف حيث اتقن الجغرافية والتاريخ وغيرهما. فما عاد سنة ١٢٤٧ الا وقد ترجم غير ما كتاب ونال الشهادات الناطقة بعلمه وفضله فاستحق ان ولاه محمد علي باشا رئاسة كثير من المدارس المختلفة في وقت واحد حتى مدرسة الالسن — وما مات حتى ملا مصر بالمترجمين والاساتذة والمهندسين وغيرهم وترك نحو ٢٠ مجلدا اهمها مترجم عن الفرنسية — ولا ننسى ما كان نشره ضابط امريكي بالجرائد اثر احتلال المتحزبين لضفة الرين اليسرى من المانيا من انه سكن مع الماني يتجاوز عمره السبعين وقد اخذ الان يتعلم الانكليزية

هكذا ينبغي ان تكون همتنا في العلم لا يقعدنا السن ولا تصدنا الاشغال فالوقت ضيق علينا تجاه الخطوات التي خطتها الشعوب المحظوظة وهيهات ان نستكثر اللغات ونستثقلها على الطاقة البشرية ففقيد العربية جرجي زيدان كان يحسن مع الفرنساوية والانكليزية والالمانية - العبرانية والسريانية مع المام بسائر اللغات الشرقية وغيرها. وفي الختام نطلب الى اخواننا الاعزاء متعلمي اللغة الفرنسية وحدها ان يتنازلوا لتعلم العربية لغتهم الاصلية لفائدة امتنا المحبوبة وفائدتهم ايضا ونحن لهم من الشاكرين



الحياة الزوجيه

(٣)

واما العلم فلا يشترطه في المرأة احد في بلادنا إلاّ ثلة من المتعلمين والمتادبين على الطريقة الافرنجية وقليل من العارفين بكنه مدينة الافرنج الذين يقدرون محاسنها قدرها وان لم يتعلموا على طريقتهم. ولا يزال اكثر المسلمين لا يعقلون لتعليم المرأة فائدة بل يرونه ضارا من جهة واحدة هي عندهم لا توازن ولا تقابل بشيء إلاّ وتكون اربى منه واكبر. وهي ان البنت المتعلمة تجرأ على الرجال وتقدم على مكاتبة من تميل اليه من الشبان وانه ليوجد في المتعلمات لهذا العهد من يحكى عنهن ذلك ومثل هذه الحكايات تسري وتذيع بسرعة البرق وتوخذ بالتسليم ويجري فيها القياس للقطع بان علتها التعلم وانه حيث وجدت العلة لزمها المعلول لا محالة. ولا يمكن اقناع العامة بان العلم ليس علة لمكاتبة البنات للشبان يلزم من وجودها الوجود وانما هو شرط يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم. لان العامة لا تفهم مثل هذه الحجج — وخاصة النساء — فالعمدة في اقناعهم بمزايا تعليم البنات هو ظهور اثره الحسن في المتعلمات بمصر وتونس وسوريا وغيرها من الاقطار ولم يظهر.

على ان التقليد يفعل في الامم ما لا يفعل الاقناع واشد الناس استعدادا وقبولا له الشعب المصري (والشعب التونسي) واذا وجد في امرائه وكبرائه عناية بتعليم البنات تقليدا للافرنج الذين يعاشرون ويمازجون فلا بد ان يعم التقليد جميع الطبقات وقد ظهرت بوادر ذلك منذ اعوام. وهي تنمو مع السنين والايام. فالاباء والامهات صاروا ينبذون بناتهم الى المدارس وهم لا يدرون ما ذا يتعلمن ولا يعرفون من المصلحة في ذلك إلاّ ان البنت المتعلمة يرغب فيها

الخاطبون الاغنياء ما لا يرغبون في غيرها. ثم انهم بهذا الاندفاع لا يميزون بين مدرسة اسلامية او غيرها ولا يفكرون في خطر افساد عقيدة البنت وتحويلها عن دينها او عادات قومها وخلائقهم المميزة لهم ولا في كونها تطرح الحياء وتجرأ على مكاتبة الرجال كما يعتقدون لان تيار التقليد الجارف لا تقف في طريقة هذه الخواطر ان هي طافت بهذه العقول الضعيفة والقلوب الميتة التي اعوزتها البصيرة والعزيمة فلم تجدهما في وارثة ولا تربية وفي هذا الاندفاع خطر عظيم على الامة كنا ولا نزال نحدث الناس به فيقبله المعتد لون وينبذه الغلاة في التفرنج وقد اتيح لنا في هذه الايام ما يقنعهم وهو ما قاله اللورد كرومر في تقريره عن مصر لسنة ١٩٠٤ وانا نذكره هنا لان بحثنا في الحياة الزوجية انما هو من حيث هي ركن لحياة الامة وسعادتها او عكس ذلك قال :

تعليم البنات

« كثيرا ما اسمع الناس يقيمون الحجج والاقيسة على حل بعض المسائل السياسية والادارية في بر مصر ويبنونها على فرض ان المصريين لا يزالون متصفين اليوم بصفات اجدادهم وخصائصهم. وعندي ان هذه الحجج والاقيسة لا تخلو من سفسطة. فالتغير حاصل ولست اقصد ان اعظمه او ابالغ فيه وانما اقول انه لا يمكن ان كل خلق وصفة من الاخلاق والصفات القومية يتغير تغيرا تاما في ربع قرن ولو امكن ذلك لما كان ذلك مستحسنا لانه يخشى في مثل هذا التغير السريع ان يذهب الحسن من الامة بجريرة الردي. ولكن ليكن معلوما عند الحكام المصريين وعند كل من له اتصال بامور مصر ان هناك قواة عاملة قد اثرت في اخلاق المصريين القومية فغيرتها بعض التغيير وستغيرها اكثر من ذلك على مر الايام. وهذه القوات العاملة معظمها يعمل تدريجا ويغير رويدا رويدا حتى لقد يخفى عمله عن عيون المراقبين في بعض الاحوال ولكن بعضها يعمل سريعا حتى لقد غير تغييرا ظاهرا محسوسا

« ومن الشواهد على ذلك تعليم البنات فان الراي العام المصري تغير في هذه المسالة الجوهرية العظيمة الشان. ومما يزيدنا استعظاما لهذا التغير في الراي العام انه آخر ماكان الناس حتى الذين يراقبون منهم اخلاق اهل الشرق ادق مراقبة يتوقعون حدوثه بمثل ما حدث من السرعة نظرا الى الآراء المعهودة عن مقام المراة في بلاد مصر. ولكن مصر بلاد العجائب والغرائب فلا عجب اذا كذب اهلها نبوءات المصلحين الاجتماعيين بتحولهم عن حال الى حال تحولا لم يكن يخطر على بال فقد كانوا منذ عشر سنوات لا يبالون بتعليم البنات بل ربما استخفوا به واستنكفوا منه ولذلك كانت كتاتيبهم خالية من بناتهم سنة ١٩٠٠ ما عدا ٢٧١ كتابا من جملتها الكتاتيب التي تحت مراقبة الحكومة. وكان عدد كل البنات اللواتي يتعلمن فيها ٢٠٥٠ بنتا اما في سنة ١٩٠٤ فبلغ عدد الكتاتيب التي يتعلمن فيها ١٧٤٨ كتابا وبلغ عددهن فيها ١٠٤٦٢ بنتا وابلغ من ذلك ان ١٠٠ بنت طلبن دخول المدارس الابتدائية العالية ومدارس تعليم المعلمات بالقاهرة في السنة الماضية فلم يجبن الى طلبهن لعدم وجود محل لهن فيها. فاحسن خدمة يخدم بها المصريون المعارف والتعليم في بلادهم تقوم بانشاء مدارس ابتدائية منظمة للبنات في بنادر القطر

« هذا وان قلة المعلمات المدربات على التعليم افضت الى تاخير تعليم البنات في جميع فروعه ولكن العقبات في هذا السبيل اسهل من العقبات التي في سبيل وجود المعلمين المدربين على التعليم. فان عند نظارة المعارف في المدارس الابتدائية العالية والكتاتيب عددا قليلا من البنات المسلمات المتمرنات على التعليم. وعليه يتسع نطاق تعليم البنت شيئا فشيئا. وفي مدرسة المعلمات الآن ١٥ تلميذة ينتهي معظمهن منها في الثلاث سنوات القادمة وينتظمن في سلك المعلمات، وقد اخبرت انهن متى انتهين من المدرسة لم يعسر وجود غيرهن من اللواتي يدرسن مكانهن

اما مقدار ما تؤثره هذه النهضة لتعليم البنات في افكار الجيل المقبل من بنات مصر وفي اخلاقهن ومقامهن فستظهره لنا الايام على مر الاعوام. على انه

اذا تاتى منها تغيير في مقامهن فالمؤمل ان هـذا التغيير يكون تدريجا وعسى ان المصلحين الاجتماعيين من ابناء مصر يحفظون في اذهانهم قول مثلهم العربي « العجلة من الشيطان والتاني من الله » وعلى الاخص في هذه المسالة اكثر مما في غيرها لان العجلة فيها يمكن ان تودي الى طامة ادبية عظيمة. على انه اذا لم يتغير مقام المرأة المصرية تغيرا تدريجيا فمهما قلد المصريون اهـل التمدن الاوربي ظاهرا فهيهات ان يتشربوا روح التمدن الاوربي الصحيح باحسن مظاهرة حقيقية » اهـ كلام اللورد

فلينظر وليتامل القاري البصير كيف عد هذا السياسي الحكيم تحول اهـل مصر من حال الى حال في هذه المسالة من العجائب والغرائب التي لم تكن تخطر في بال احد من علماء الاجتماع وكيف اشار الى ان هذه العجلة شيطانية وتقول ان نصيحته هذه للمصلحين من ابناء مصر سيحفظها له التاريخ ويذكرها له في المستقبل مقرونة باجلال الفضيلة والاخلاص لا سيما اذا كان اثم الانقلاب المنتظر اكبر من نفعه كما يتوقع،

كانت حالة النساء في اوروبا على اسوإ ما يخطر في بال البشر من المهانة والاحتقار ولذلك كان ما يسمونه « رد الفعل » في التحول والانقلاب عظيما فبعد ان كانوا يعتقدون ان المراة ليست من البشر وانما هي حيوان دون الانسان وفوق سائر الحيوانات وبعد ان كانوا يسومونها الخسف حتى حرموا عليهـا اكل اللحم ومنعوها الكلام والضحك في حضرة الرجال واوجبوا عليها السمع والطاعة لزوجها في كل شيء ولو كان ضارا او خسيسا او شاقا لا يطاق اطلقوا لها العنـان تتعلم ما تشاء وتعمل ما تشاء وتتهتك كما تشاء وتتحكم كما تشاء حتى صارت تشارك الرجال في اعمالهم الخاصة خارج البيوت فاهمل من امر نظام البيوت بقدر ذلك ولا غنى للبيوت عن النساء وكل عمل خارجها فهو مستغن بالرجال عنهن . وانتهي الامر بكثيرات منهن الى اختيار التبتل فرارا من اثقال الزوجية ونـاهيك بانتشار البغاء وشيوع

الفاحشة وما في ذلك من المفاسد والمضرات . وقد انشأ العلماء والحكماء يشعرون بخطر هذا الاطلاق لصنف لاهم لافراده غير الزينة والراحة واتباع هوى النفس لان وجدانهن اقوى من عقلهن ولكن كل ما يتعلق بصفات الامم وشؤونها لا يظهر نفعه او ضره ولا يمكن ايجاده او منعه إلاَّ في زمن طويل

ليس من غرضنا في هذا المقال ان نبحث عن احوال الامم في انتقالها وتحول احوالها ولا عن حال النساء في اوروبا ومنافع تعليمهن ومضاره وانما غرضنا ان نبين ان العلم الذي ينبغي ان تعرفه المراة هو ما لا يخرج بها عن كونها امرأة وهو ما تكون به قرة عين وخير سكن للرجل المتعلم يحسن معها به عيشه ويكون عونا لها على تهذيب ولده وادارة شؤون بيته لا ما تكون به فيلسوفة ولا سياسية ولا صانعة . وهذا ما اختارته ارقى دول اوروبا في العلوم والمعارف وهي دولة المانيا التي ينسب اليها بعض دول اوروبا التقصير في تعليم النساء وستضطر كل الدول الى سلوك سبيلها في يوم من الايام

ليست البيت مملكة فيتوقف عمرانها على العلوم العالية والفنون الصناعية والزراعية والتجارة وتتوقف ادارته على معرفة الشرائع والقوانين وليست العلاقة بين البيوت كالعلاقة بين الدول فتضطر ربة البيت في حفظ حقوقه الى التوغل في السياسة والفنون العسكرية

حسب المراة ان تتقن لغة امتها وتعرف آدابها وان تعرف الحساب وعلم تدبير المنزل وعلم حفظ الصحة وعلم الاخلاق وعلم التربية وان يكون هذان العلمان قائمين على اساس الدين مقرونين بمعرفة عقائده وآدابه واحكامه والتاريخ العام بالاجمال وتاريخ امتها وبلادها بالتفصيل وعلم تقويم البلدان وعلم الاقتصاد . ثم مبادي وموضوعات سائر العلوم وفوائدها بقوة الاجمال . وان تعرف الطبخ والخياطة والتطريز وما يتصل بذلك ، ولا يصدنها عن هذا انها من بيوت الاغنياء الذين لا يطبخون طعامهم ولا يخيطون ثيابهم بايديهم فان علمها بذلك وتمرنها عليه

نافع بل ضروري وقد بلغنا ان قيصرة روسيا كانت تحسن الطبخ والخياطة وان فيكتوريا ملكة انكلترا وامبراطورة الهند تنسج وتخيط وتطرز فهذا كمال للنساء ان لم يعملن به فعليهن ان يعلمن كيف يعمل في بيوتهن ويعرفن نفقته ودرجة جودته ويحسنّ المراقبة والرياسة على الخدم التي تقوم به

اما معرفة موضوعات وغايات العلوم والفنون المتداولة في الامم الحية فلها فوائد منها ان لا تكون عدوة اوكارهة لشيء نافع لقومها فان من جهل شيئا عاداه وكرهه وان الانسان يكون ناقصا بمقدار ما يجهل من المضار والمنافع ومنها ان تعرف قيمة زوجها اذا تزوجت بمن يشتغل بعلم او فن مما يجهل النساء تفصيله فاذا رأته يشتغل بتجارب زراعية او كيماوية مثلا عرفت فضله في ذلك ورجت له من الفائدة ما تكون عونا له على عمله . فان المراة التي تجهل قيمة زوجها المعنوية ومعارفه التي يمتاز بها لا يهنا لها معه عيش لانها لا ترى عمله إلاّ شاغلا له عنها كانه ضرة لها وهو لا يهنى له معها عيش لانه يراها جاهلة بقدره بعيدة عنه في نفسه وعقله . وان شئت قلت انهما يكونان شخصين متباعدين بالروح والعقل لا يمكن ان تتكون منهما حقيقة الزوجية التي بينا معناها في البندة الاولى ومن تلك الفوائد ان يكون لها رأي فيما تنصرف وجهة اولادها لاتقانه من العلوم والفنون بعد التعليم الابتداءي والثاني . وكثيرا ما يموت الوالد وتكون المراة هي القيمة على اولادها منه فينبغي ان تعرف وجهتهم في المدرسة وغايتهم في التعليم لتحسن القيام عليهم .

واما فائدة اللغة وآدابها فهي بديهية لمن يقول بالتعليم فالمراة التي لا تفهم لغة امتها العلمية الادبية تكون بمنزلة البهائم لا تشعر إلاّ بالحاجات الجزئية التي اودع الشعور بها في فطرة كل حيوان ويكون سكون الرجل العالم الاريب اليها بمقدار الداعية الحيوانية الى ملامستها في وقت هذه الداعية وتكون في سائر الاوقات كلا عليه وبلاء ومصابا اذ يراها مباينة له في انسانيته لا تشاركه في حسن

تصوره ودقة مداركه و رقة شعوره بالمعاني الادبية والافكار الاجتماعية ويرى اقناعها بالمسائل المعقولة والمصلحة القطعية متعذرا او متعسرا عليه لانها ليس لها لغة تعبر عما وراء الضروريات التي يدور عليها كلام العامة . ثم انه اذا سافر تنقطع الصلة بينه وبينها لا يكتب اليها ولا تكتب اليه فيما يتعلق بشؤون البيت ومصلحة العشيرة إلا اعلاما بالصحة واستعلاما عنها ونحو ذلك ويتعذر عليه ان يشعرها بما يشعر به في سفره من لذة وألم وسرور وكآبة كما يتعذر عليها ذلك

وأما فائدة الحساب فلا يجهلها أحد في البشر إلا أن يكون بعض اهل الازهر، فالمراة التي تعرفه يمكنها ان تضبط نفقات البيت على القاعدة التي يسمونها الميزانية فتجعل الخرج على نسبة الى الدخل معروفة فهو عون على الاقتصاد . وقلما توجد امرأة في الارض لا تشتري ولا تبيع شيئاً ولا تعامل احداً بالمال والنساء اللواتي يملكن المال والعقار والارض والعروض كثيرات والاسلام جعل لهن حق التصرف في أموالهن فالمرأة التي لا تعرف الحساب تكون عرضة للخطا في كل معاملة مالية فيغشها البائع والمشتري والوكيل والاجير ويطمع في اغتيال مالها زوجها السفيه ويعبث به ولدها الصغير

وأما الاقتصاد الذي يعد الحساب من وسائله فهو روح المعاملة وأس النظام وملاك المعيشة ودعامة السعادة . فإذا لم تكن ربة البيت عارفة بهذا الفن عاملة به فلا يستقيم للمعيشة حال بل تكون مضطربة بين امواج الحوادث يتقاذفها اليسر والعسر ، ويتناوبها الغنى والفقر ؛ وليس الرجل بمغن في اقتصاده عن اقتصاد المرأة عن رضى واقتناع ولا رضى ولا اقتناع إلا بالعلم والمعرفة بأن مصلحتها ومصلحة بيتها في الاقتصاد ألم تر ان معظم المال يذهب في سرف النساء وخيلائهن ، ألم تسمع أنين الرجال وأطيطهم من ثقل النفقة على ما يبتدع النساء كل حين من الازياء والتنقل في ضروب الحلي والحلل ، ألم تعلم بانهن لا يعذرون الرجل اذا قال لا استطيع لا أقدر لا أملك بل ينغصن عيشه ويسلبن راحته أو يبذل لهن ما يطلبن ولو استدانه بالربا الفاحش أو باع لاجله الغالي النفيس بالثمن البخس ؟

هذا مما تعرف فهل لك ان تضم الى معرفة الداء معرفة العلاج وهو ان تتزوج بامرأة كاتبة حاسبة مقتصدة وتجعل للبيت بالاتفاق معها ميزانية يكون الخرج فيها جزءاً من الدخل وتكون هي المنفقة والقيمة كما تجعل لارضك وعقارك ميزانية تكون انت المنفذ لها وبذلك تكون امرأتك مقتنعة بأن ما توفر من الدخل في الحال ؛ هو عدة لها ولاولادها في الاستقبال .

جرب كثير من الرجال هذا العلاج فوجدوه نافعاً مفيداً ومنهم من اسعده الحظ به على غير علم بفائدته فأصاب السعادة عفواً . اعرف رجلا مسرفاً كان يضيع كسبه الكثير بغير عقل ولا حساب ويضطر الى الدين حتى اخذ الدين بتلابيبه لانه كان جاهلا سكوراً فتزوج بفتاة كانت يهودية وأسلمت إسلاماً صحيحاً فما عتم ان حسنت حاله فقل سرفه وحسن عمله وقضى دينه ثم صارت له ثروة مدخرة . وحدثت عن رجل في مصر له راتب من الحكومة لم يكن كافياً لسعته في نفقاته الشخصية فتزوج بفتاة متعلمة مهذبة فهو يعيش معها في هناء ونعيم ويقتصد من راتبه شيئا يدخره للمستقبل المجهول . بل اعرف غير واحد من الفقراء جعلوا كسبهم في ايدي نسائهم فكانوا معهن في عيشة راضية يزيد فيها دخلهم على نفقتهم زيادة لها شأن عندهم . وإنني اظن انه يصعب على اكثر النساء ان يبذلن جميع ما في ايديهن من المال في الامور الزائدة على الضروريات او الحاجيات ولكن يسهل عليهن ان يبذلن اكثر مما في ايدي ازواجهن اذا كانت النفقة بيده . فالمراة الجاهلة تقدر على الحياة الاقتصادية في بيت فقير ولا تقدر على ذلك في بيت غني ولا متوسط إلا بالعلم وحسن التربية

واما علم حفظ الصحة فهو ضروري لكل انسان سواء كان يعيش منفردا او زوجا او صاحب عيال ورئيس عشيرة فمن عرف هذا العلم سهل عليه التوقي من اكثر الامراض والاوبئة ووقاية من يعوله منها واذا هو اصيب بمرض فانه يحسن وصفه وبيان اسبابه وكيفية سيره للطبيب فيكون اكبر عون له على تشخيصه ومعرفة

حقيقته ثم انه يحسن العمل بما يامره به الطبيب من المعالجة . فربة البيت الجاهلة بهذا العلم تكون بلاء على نفسها وعلى زوجها واولادها ولا يمكن ان تقل الامراض والادواء في امة إلاّ اذا تعلم نساؤها هذا العلم فكم من طفل فتك به المرض بجهل امه بمداراة صحته وكم من امراة قتلت ولدها او زوجها بنفس الادوية التي وصفها الطبيب لشفائه لجهلها باسمائها وبمقادير ما يعطى المريض منها . ولقد يتعسر على المريض العالم ان يحسن معالجة نفسه في بيت قيمته جاهلة لان اي عمل في البيت لا يتم إلاّ بها .

واما علم الاخلاق فهو عون للانسان على تكميل نفسه في الكبر وعلم التربية يتوقف عليه لان من لا يعرف قوى النفس وكيفية تكوين ملكاتها وانطباع اخلاقها وطريقة تأديبها وآثار صفاتها ووجدانها فهو لا يعرف معنى الانسان او هو ليس بإنسان كامل فيتعذر عليه تكميل غيره بحسن التربية التي هي أهم ما يجب على المرأة وأعلى ما يطلب منها

ويدخل كل ما تقدم في علم تدبير المنزل ماعدا مبادي الفنون وعلم اللغة التي هي وسيلة كل علم لان المراد بتدبير المنزل سياسة اهله وموضوعه حقوق كل من الزوجين على الاخر وحقوقهما على الاولاد والخدم وحقوق هؤلاء عليهم وطريق قيام كل بما يطلب منه . والمرأة هي ربة البيت ومديرة نظامه فينبغي ان تكون عارفة بما عليها ومرشدة للاولاد والخدم الى ما يجب عليهم تحت رعايتها لينتظم شأن البيت فتكون العيشة راضية وليتربى الاولاد بالقدوة الصالحة فيكونوا أعضاء صحيحة عاملة في الامة . ومعرفة التاريخ وتقويم البلدان هي التي تودع حب الامة في القلب وتبعث فيه روح الغيرة فاذا كانت المرأة جاهلة بتاريخ أمتها ومكانتها من غيرها فهي لا تشعر بأنها عضو من جسد أمة كبيرة لها حقوق يجب على الافراد القيام بها وعلى الوالدين تربية اولادهم على احترامها والتنافس في المسابقة اليها واعتقاداتها دعامة الشرف وركن العزة والسيادة ويكون الانسان كبير

النفس وعظيم الهمة اذا كان يشعر بأن وجوده غير محصور في مساحة جسمه الصغير وانما هو واسع بروحه المنبثة في عالم كبير يسمى الامة تعمل له كما يعمل كل عضو في جسده لمصلحة الجسد كله . ويكون اكبر واعظم اذا كان يشعر بأن وجوده أوسع وأرقى لانه خلق ليعمل ما يفيد البشر كلهم بالتقريب والجمع بين المختلفين والتأليف بين المتنافرين وغير ذلك من الاعمال أو بث العلوم التي ينتفع منها الجميع . ويكون الانسان حيوانا حقيرا ضيق الوجود اذا كان علمه وعمله موجهين لخدمة شخصه ومن عساه يتصل به اتصالا محسوسا كاهله وعشيرته . ومن كانت هذه حالته فانه لا يرجى منه ان يربي اولادا ينفعون أمتهم و وطنهم وينفعون الناس اجمعين . لذلك كان لابد لكل انسان من ذكر وأنثى ان يعرف التاريخ ليتسع وجوده بقدر استعداده لعله يربي من ينفع الامة والناس . وعلم تقويم البلدان في معنى التاريخ بل هو منه في الاصل ثم صار أصلا مستقلا تلك إشارة الى ما يطلب من كمال المرأة وتختار لاجله . وسنكتب كلمة اختيار المرأة للرجل .

(المنار جزء ٥ - ربيع الاول ١٣٢٣)



العلم عندنا وعندهم

لاشك ان الحكم على الامم حسب سيرها نحو الرقي او الانحطاط يتوقف على معرفة قيمتها العلمية وحالتها الاخلاقية اذ بذلك تتميز الشعوب ويعرف الراقي منها من المنحط وقد علمنا التاريخ ان كل قوم تقاعدوا عن تحصيل العلم وغفلوا او تغافلوا عن تطبيق قواعده على نواميس الحياة واضاعوا اخلاقهم او استبدلوها بما لم يلق بطبيعتهم ومميزاتهم توالت عليهم النكبات الاجتماعية واصبحوا هدفاً لعوامل التقهقر والانحلال وهذا الطور هو الذي دخلت فيه الامة التونسية منذ مدة بعد ان كانت بلادنا المباركة مقرا للمعارف والفنون يؤمها الناس من جميع الممالك الاسلامية تجذبهم اليها شهرة فقهائها وبلاغة ادبائها وسعة علم محدثيها ودقة صناعة معاملها الخ.

ولم يكن تقهقرنا ناشئاً عن نقص في ذكاء اهل هذه الديار او عجز عن التنظيم والاختراع وانما سببه المحافظة على اساليب في التعليم لم تعد صالحة للزمان. والاعراض عن التصرف فيما يدرس بما يناسب التغييرات الاجتماعية التي طرأت على البلاد كما طرأت على غيرها والاحترام المتناهي لقواعد فارقتها الحياة من زمن بعيد والازدراء بما كانت تجول فيه عقول العارفين بالممالك المجاورة لنا وعدم الاهتمام بمكتشفات علمائها وابحاثهم المتنوعة في الكيميا والهياة والفلك والطبيعيات وقد انغمسنا في تدقيق الجزئيات المنطقية والنكات الفقهية وتجاهلنا اوروبا كانها لم تكن في عالم الوجود في حين كان يجب علينا تتبع سيرها بغاية العناية والانتباه من يوم ظهور النهضة الايطالية والانقلاب المذهبي اللذين غيرا منظرها

وكانت نتيجة هذا الموقف الغريب الذي ربما برر لا بعضهم بالحقد والكراهية اللذين استوليا على المسلمين ضد اوروبا اثر الحروب الصليبية وهجمات المسحيين المتوالية على اراضي الهلال . وقوف دولاب المدنية عندنا وتدحرجنا من قمة العز والرفاهية الى درك الجهل والفاقة والخذلان حولنا انظارنا الى ماضينا الفاخر وافرطنا في الترنم بما صنعه الاباء والاجداد بينما كانت اوروبا متجهة بكليتها الى المستقبل مستعينة على فتح ابوابه الفضية بفحص تلك الكتب التي دونها حكماؤنا واستخراج كنوزها الثمينة واستمرت هكذا متابعة للعمل والاجتهاد الى ان بلغت منزلتها الحالية من القوة والسلطان

انعزلنا عن اوروبا انعزالا تاماً وضربنا صفحا عن تقلباتها الاجتماعية ولكنها لم تقلدنا في هذا المسلك العقيم ولم تعبأ بجفائنا لها بل انها اخذت تتقرب منا « لصالحها » بربط العلايق التجارية اولا ثم بعقد المعاهدات مع امرائنا وباتت ترصد الفرص للتداخل في امورنا مما مكننا الى ان ساعدتها الظروف وضعف حكوماتنا على التداخل الفعلي في شؤوننا

حصل كل ذلك ونحن لم ندرك ان ما بلغه الغرب من اسباب القوة والرقي انما كان بفضل انتشار العلم بين اقوامه وحسن تطبيق اصوله على ضروريات الحياة بخلاف الامر عندنا فاننا كنا نعتقد وربما لم يزل بعضنا يعتقد الى اليوم ان العلوم النقلية التي ورثناها عن اسلافنا هي اقصى ما تطوح اليه انظار بني الانسان وان ما جالت فيه عقولهم وما دونته اقلامهم يكفي لحاجتنا مدى الايام والدهور ضرورة ان هؤلاء البعض لا يزالون ينكرون ما لدرس العلوم النظرية والعقلية الصحيحة كالحساب

على اختلاف ابوابه والجغرافية والطبيعيات والهيأة الخ من الفايدة الكبرى بل يعدونها من الزوايد التي يمكن الاستغناء عنها وقد اثرت افكار هؤلاء على تاريخنا العلمي بدليل ان بعض تلك العلوم لايدرس لحد الان بصورة منظمة كالادب والتاريخ والفلسفة بدعوى انها تكتسب بالمطالعة وان لاحاجة لتعليمها بانفرادها على نمط الفنون الاخرى فنشأ عن اتباع هذه الفكرة انحطاط تلك العلوم ببلادنا انحطاطاً محسوساً بحيث صار المتضلعون فيها بطول الزمان يشار اليهم بالبنان على ان الحالة العلمية على الاطلاق لم تكن موجبة للسرور بسبب تغالينا في المحافظة على الاساليب القديمة والطرق المألوفة بقطع النظر عن صلوحيتها لحاجيات الوقت او عدمها

هكذا كانت تعاليم اهل الجمود من علماء بلادنا في الوقت الذي اخذ فيه العلماء الغربيون يتخلصون شيئا فشيئا من وطأة المبادي القديمة ويرسمون لاهل الافكار والقرايح النيرة من ابناء جلدتهم سبلا يهتدون بها الى بلوغ مآربهم في دراسة العلوم على اختلاف غاياتها ومباحثها فهيأوا تدريجياً للاجيال المعاصرة لنا التراتيب المدرسية التي نالت بفضلها اروبا الرتبة الاولى بين الاقاليم في المدنية والرقي وما هي إلاّ تقسيم التعليم الى ثلاث درجات ابتداءي وثانوي وعالي وانشاء الكليات والمدارس الفنية لتمكين من اراد التضلع في علم دون غيره من مرغوبه وابدال اساليب البحث والاستقصاء بما يعبرون عنه بالطريقة « التجريبية » المبنية على تحليل المواد وتركيبها من جديد فيما يخص علم الكيمياء ورصد الحوادث الطبيعية بصورة مدققة وضبطها فيما بعد بقواعد ثابتة يرجع اليها الباحثون في علوم الهيأة والطبيعة وحتى الاجتماع

وايجاد سبيل للانتقاد للتوصل الى معرفة الواقع في التاريخ والادب والفنون المستظرفة اذ لم يعد مؤرخو هذا العصر يكتفون بمجرد نقل الوقائع والانقلابات كما تصل اليهم بل صاروا يبحثون عن اسبابها وارتباطها بنتائجها في المستقبل كما اعتنى الادباء بدرس حياة الكتاب وتاثير تطوراتهم على مؤلفاتهم وعلى حالة الاداب في مجتمعهم

بفضل هذه الطرق ارتقى العلم باوروبا الى الدرجة التي نشاهدها اليوم وتجلى للمؤلفين افق لم يحلم به الاقدمون وتوفق المستشرقون منهم الى تصنيف الكتب في آدابنا وتاريخنا واخلاقنا بما هو ادق نسجا واحسن اسلوبا واكثر فائدة مما حبرته اقلام كثير من كتابنا في تلك الاغراض وهو ما دعانا لتحرير هذه الاسطر تنبيها للعقول وايقاظا للهمم خصوصا وقد ظهرت منذ بضع سنين ببلادنا نابتة نشيطة اغترفت من مطالعة المولفات والمجلات الشرقية افكارا جديدة واميالا عقلية مبشرة بنهضة علمية قريبة والرجاء ان تتنبه شبيبتنا التي زاولت العلوم في المدارس العصرية للوظيفة السامية التي القتها على عواتقها الظروف وهي ترجمة ما تخطه اقلام الغربيين في سائر المباحث العلمية للغتنا العربية الفصحى نشرا للعرفان بين مواطنينا وتعجيلا للنهضة التي بدا فجرها يرفرف على هذه الديار

نبذ تاريخية

الانقلابات السياسية التي طرات على الدولة العلية

٤

دور التقهقر

قلت ان مملكة الروسيا خلعت عن عاتقها نير التتار في اواسط القرن العاشر واستولت على قازان واستراخان ومع ذلك فقد لبثت دولة خاملة لا مواصلة لها باوروبا وحاولت ان تتصل ببحر البلتيك فصدتها عساكر بولونيا والسويد ومن جهة اخرى لم تكن نافعة للكنيسة الكبرى برومة ولا مستعملة للغة اللاتينيين التي كانت لغة الدين والاداب لدى الامم الافرنجية ولذلك كانت هذه الامم تعتبر الروس امة شرقية متوحشة لا حظ لها في النهضة العلمية التي ظهرت باوروبا في اوائل القرن العاشر حسبما سبقت الاشارة اليه.

وفي اواخر القرن العاشر استولت الروسيا على سيبيريا وصار ملكها يلقب بالقيصر عوضا عن لقب الامير الاعظم الذي منحه لاسلافه ملوك التتار وعقب ذلك ثارت فتن آلت الى سقوط العائلة المالكة بموسكو وتتداخلت بلونيا واستولت على هذه العاصمة وكادت الروسيا ان تصير تابعة لبولونيا لولا الخلاف المذهبي لان الروس اورتودكس والبلونيون كاتوليك فثار الروس واطردوا البولونيين وبايعوا رجلا من اعيانهم يسمى ميخائيل رومانوف (سنة ١٠٢٣ هجرية) وهو مؤسس الاسرة القيصرية المالكة لعهد الثورة الاخيرة

وقد توجهت عناية ميخائيل المذكور وابناءه من بعده الى تنظيم الجيش وتنسيق الادارة وسن القوانين وفتحوا ابواب مملكتهم الى الاجانب الذين كانوا ارقى من الروس في المعارف فدخلها جم غفير من الانكليز والسويد والالمان فكان لهم الفضل في تهذيب طباع القوم وتربيتهم على الاصول الافرنجية بيد

ان الانقلاب العظيم انما ابتدأ بالروسيا من عهد قيصرها الشهير بطرس الاكبر بويع هذا الملك في سنة ١٠٩٣ للهجرة وكان في العاشرة من عمره فكفلته امه وقامت بتدبير الملك الى ان بلغ رشده وكان في صباه مولعا بالامور العسكرية وكان احب الالعاب اليه تقليد الجنود في زيهم وحركاتهم وصنع بيده سفنا حربية صغرى لم تزل موجودة الى الآن بدار الاثار الروسية ولما استقل بالملك كان اول اعماله تنظيم الجيش والاسطول على النمط الافرنجي ثم سافر الى الممالك الغربية لدرس مدنيتها ونظاماتها وحل متنكرا بمعمل الاساطيل في هولاندة واندمج في جملة العملة وباشر صنع السفن بنفسه ثم رجع الى مملكته مصحوبا برئيس ذلك المعمل واتخذه وزيرا بحريا وجلب جما غفيرا من مهرة الضباط والمهندسين واحدث كليات للعلوم العمرانية فذاع اسمه واشتهر لدى الامم ولما تم له ما اراده من تعزيز قوته وجه عنايته لانجاز الامنية الكبرى التي كانت لملوك الروس اعني الخروج من العزلة والاتصال بالبحار ليتسنى لهم ربط المواصلات مع الممالك الغربية فافتتح مرسى ازاق بالكرم ثم توجه نحو البلطيك فاستولى على بعض سواحله بعد حرب عنيفة مع ملك السويد وامر ببناء مدينة على الساحل نسبت اليه فسميت بطرسبورغ (سنة ١١١٥ هـ) ونقل اليها عاصمة المملكة لقربها من الممالك الغربية — ثم ارغم امته على نبذ العوايد القديمة واتخاذ الشعار الافرنجي واطلق للنساء الحرية بعد ان كن محتجبات على العادة الشرقية وفتك بكل من قام في وجهه معارضا للنظامات الجديدة سواء في ذلك كبراء الدولة ورؤساء الدين كما استاصل طائفة من عساكره لكثرة جنوحها الى العصيان كجند الانكشارية العثماني واعلن عليه شارل الثاني عشر ملك السويد حربا عنيفة وفاز في كثير من الوقايع ولكنه انهزم شر هزيمة بوقعة (بولتافا) واضطر للالتجاء الى الممالك العثمانية (سنة ١١٢١) وزعموا ان بطرس الاكبر ترك وصية فحواها توهين مملكة السويد واقتسام بولونيا والزحف على الفرس للتقرب من الهند ثم الاستيلاء على الاستانة

وبذلك يتسنى للروسيا التغلب على الممالك الاروبية وقد تبين ان هذه الوصية مفتعلة ومع ذلك فقد تم تقسيم بولونيا والاستلاء على فنلانده من ممالك السويد وداغستان وشروان وغيرهما من ممالك الفرس وتقربت من الهند بالتوغل في تركستان وكانت السند الاكبر للممالك البلقانية في الخروج عن السلطة العثمانية ولولا معارضة الدول الافرنجية لتم لها الاستلاء على القسطنطينية

تلك هي الحالة التي كانت عليها الروسيا لما ارتقى احمد الثالث اريكة السلطنة العثمانية (سنة ١١١٥) وهو آخر من اتخذ وزيرا من آل كوبرلي الشهيرين واعلن حربا على الرسيا بسبب استيلائها على ازاق وارسل جيشا تحت قيادة الصدر عمر بلطاجي فالتقى بعساكر بطرس الاكبر على حدود الروسيا فاحدق العثمانيون بجيش الروس بحيث كان يمكنهم ان يأخذوا الجيش وقيصره اسيرا ويدمروا السلطة الروسية قبل استفحالها واستولى اليأس والقنوط على بطرس الاكبر وكانت معه زوجته كاترينا فجالت ليلا بين صفوف العساكر واخذت من الضباط والجنود كل ماكان معهم من المال والحلي ولما اصبح الصباح بعثت ما جمعته هدية الى قايد الجيش العثماني وعزمت عليه الصلح وارجاع مرسى ازاق فقبل بذلك محمد بلطاجي واضاع تلك الفرصة الوحيدة في القضاء على سلطة الروس (١١٢٣) ويقال ان شارل ملك السويد السالف الذكر كان بالعسكر العثماني اثناء المخابرات بالصلح فالح على الصدر بلزوم المبادرة للقتال وقال له ألا ترى ان عساكرك ضعف عساكر الروس وانك محدق بهم من جميع الجهات فالقيصر وجيشه في قبضتك ولو شئت لامرت حالا تلك العساكر واخذت القيصر اسيرا فما كان من محمد بلطاجي إلا ان التفت اليه متبسما متهكما وقال اذا اخذنا القيصر اسيرا فمن يقوم بتدبير مملكته ولا يحسن بالملوك ان يكونوا خارج بلادهم . مشيرا بذلك الى حالة ملك السويد الذي انهزم امام الروس والتجأ الى الممالك العثمانية . وقد لبث هذا الملك في رومانيا اعواما يحاول ايقاد نار الحرب بين الروسيا والسلطنة العثمانية الى ان اخرجه السلطان قسرا لما كثرت دسايسه

وعلى عهد السلطان احمد الثالث وقعت حرب مع النمسا وكان قائد جيشها البرنس اوجين السالف الذكر فانهزم العثمانيون في وقعة (بتروواردين) واستولت النمسا على (تمشوار) وما بقي بيد الدولة من بلاد المجر كما استولت على مدينة بلغراد وبعض البلاد الصربية (١١٢٨)

وكان السلطان احمد الثالث من احسن ملوك آل عثمان بذل قصارى الجهد في تحسين الادارة وتنظيم الجيش واصدر ارادة في دخول فن الطباعة الى ممالكه ثم كانت له حروب مع الفرس انهزم فيها الاتراك فثار جند الانكشارية وخلعوه وبايعوا السلطان محمود الاول (سنة ١١٤٢) فاستمر على حرب الفرس ودامت ست سنين توالت فيها الهزائم على العثمانيين وكان على الفرس شاه دخيل في الملك وهو (طاهمسب قولي خان) وسمي نادر شاه كان شهما جبارا وهو من اشهر شاهات العجم واضطر السلطان محمود لمصالحته والتنازل له عن شروان وكرجستان وجانبا من اديستان لتمكنه مواجهة الروسيا التي اعلنت عليه الحرب منفردة ثم باتحاد مع النمسا وكانت الحرب سجالا ثم انتهت بالتنازل عن بعض بلاد الكرم للروسيا ورجوع بلغراد للدولة العثمانية (سنة ١١٥١)

وحاول السلطان محمود اصلاح احوال الدولة التي اضنتها تلك الحروب المتوالية من اعداء متكالبين عليها من جميع الجهات ومات محمود في سنة ١١٦٨ فخلفه اخوه عثمان الثالث ومات بعد ثلاث سنين ولم يقع في مدته ما يستحق الذكر

ثم تولى السلطان مصطفى الثالث (سنة ١١٧١) وعلى عهده ظهر كثير من الثوار كالوهابين بجزيرة العرب واحمد الجزار بعكا وعلي باشا بيانيه والمملوك علي باي بمصر وبينما كانت هذه الجراحات الداخلية دامية اعتدى الروس على بلاد السلطنة بجوار بولونيا فاضطر السلطان الى اشهار الحرب على كاترينا الثانية قيصرة الروس فانهزمت عساكر الدولة برا وكان سبب الهزيمة ان العساكر العثمانية كانت تعبر نهر دنيستر على جسر من المراكب ففاضت مياه النهر بغتة وغرق

نحو ستة الاف جندي فاختل نظام بقية الجيش ثم استمرت الحرب سجالا وارسل الروس من بحر البلطيك اسطولا فدخل البحر المتوسط وهجم على الاسطول العثماني بغتة بمرسى ششمه من ولاية ازمير واحرقه حسبما سبقت الاشارة اليه (سنة ١١٨٢) وانتهت هذه الحرب بانجلاء الاتراك عن الافلاق والبغدان (رومانيا) التي كان يحكمها امراء مسيحيون يعينهم السلطان والعساكر التركية متبوءة لاهم المراكز بحيث كانت رومانيا بازاء الدولة العثمانية في حالة شبيهة بما يسمونه اليوم بالحماية السياسية

وفي سنة ١١٨٥ عادت الحرب فانتصر العثمانيون برا في بلغاريا وترابزون وخرج حسن باشا قايد الاسطول المحترق ومعه اربعة الاف مقاتل في مراكب صغيرة بلا مدافع وهاجم بجسارة عجيبة اسطول الروس الضارب امام جزيرة لمنوس واطلق عليه العثمانيون طبنجاتهم فحل الرعب بقلوب الروس واقلع اسطولهم راكنا الى الفرار . . . وتوفى السلطان مصطفى ماسوفا عليه لحزمه وعدله وشروعه في اصلاح الجيش والادارة

ثم بويع السلطان عبد الحميد الاول سنة ١١٨٧ والبلاد في فتن داخلية وحروب خارجيه وتوغلت عساكر الروس في بلغاريا وهزمت العثمانيين في وقعة (وارنا) فاضطر السلطان الى طلب الصلح وامضاء معاهدة (قاينارجي) المشؤومة سنة ١١٨٨ التي كان من شروطها تخويل الروسيا حق الدفاع عن مصالح نصارى الافلاق والبغدان عند اللزوم وبذلك تمكن نفوذ الروسيا بالمشرق واشرأبت اليها اعناق النصارى من رعايا الدولة بجزيرة البلقان وولدت فيهم آمال الاستقلال والخروج عن السلطان — وبالمعاهدة المذكورة اعترفت الدولة باستقلال تتار الكرم وكان ذلك تمهيدا لاستيلاء الروسيا على بلادهم وقد تم ذلك فعلا (سنة ١١٩٧) لروسيا بعد ان اطردت الخان شاهين كراي الذي اغتر لمواعيدها وركن الى حمايتها فانزلته عن عرش اجداده وقتلت كثيرا من اعيان قومه وسلمته

الى السلطان فامر بضرب عنقه وذلك جزاء الخائنين ـ وهكذا سقطت جميع الممالك التتارية التي تكونت بالروسيا من القرن السابع للهجرة وذلك لانقسام تلك الممالك وتنافرها وموالاتها للعدو بعضا على بعض كما وقع بالاندلس في القرن الخامس على عهد ملوك الطوايف ـ ولو حافظ التتار على وحدة الملك العظيم الذي اسسه ابناء جنكز خان لكانت الروسيا اليوم من بعض مستعمراتهم فسبحان من يأتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ـ



الدساتير الحديثة

قرأنا في هلال نوفمبر ١٩٢٠ فصلا تحت العنوان اعلاه قال كاتبه في بيان الغرض من تحبيره : « يجدر بنا في الدور الحاضر ان ندرس الدساتير الغربية الحديثة ومبادئها الاساسية وكيفية تطورها والوجهة التي تتجه اليها لنسترشد بما نكتسبه من ذلك الدرس في العمل الخطير الذي قد فرض علينا انجازه » وقد رأينا ان ننقل منه هنا مايناسبنا ونذيل ذلك ببيان حظ تونس من الدستور قديماً وحديثاً قال :

« تطور الدساتير الحديثة »

« ان انشاء الدساتير امر حديث في التاريخ البشري ـ احدث مما قد يتبادر الى ذهن القاري . اجل لقد عرف التاريخ القديم انظمة ذات شان ولكنها لم تكن دساتير بالمعنى المعروف اليوم . فقد كان للدولة الرومانية مثلا دستور كما ان لانقلترا اليوم دستورا ولكن لم يكن للدستور الروماني كما انه ليس للدستور الانقليزي كيان معين مستقل . فلا يخفى ان الدستور الانقليزي ليس الا مزيجا من تقاليد متناقلة جيلا عن جيل وقوانين مسنونة في احوال مختلفة ولاغراض مختلفة . فليس لانقلترا دستورا وقانون نظامي متناسق المواد مترابط الاجزاء

« ويقال بوجه الاجمال ان اسبق الامم الحديثة الى تدوين الدساتير على شكل قانوني الشعب الاميركي . فقد عقد مؤتمرا في سنة ١٧٧٦ لانشاء نظام سياسي تسير بمقتضاه الولايات المتحدة وسن المؤتمر في السنة التالية المواد الاساسية لاتحاد تلك الولايات . فكان الاميركيون مبتدعين

في هذا الميدان . وقد حذت حذوهم سائر الشعوب شيئاً فشيئاً الى يومنا هـذا

« واول دولة فعلت ذلك بعد اميركا فرنسا . ولا يخفى انه كان بين فرانسا واميركا في ذلك الوقت علاقات ودية وروابط ادبية متبادلة . فقد امّ باريس نفر من زعماء النهضة الاميركية امثال فرنكلين وجون ادمس واطلعوا الفرنسيين على ما احدثوه في بلادهم من النظامات الدستورية فعنى بها المفكرون من الفرنسيين اعظم عناية وادركوا قيمة تلك الاصلاحات الخطيرة وشرعوا يسعون في ادخال ما يماثلها على نظام بلادهم . وفي سنة ١٧٨٩ طلب مندوبو الشعب الفرنسي في جملة ما طلبوا من الاصلاحات انشاء نظام دستوري مدون وعاهدوا انفسهم الا يتفرقوا قبل ان يفوزوا بمطلبهم . وقد نجحوا في ذلك ففي سنة ١٧٩١ نالت فرنسا قانوناً دستورياً كان الاول من نوعه في القارة الاروبية »

« ومن ذلك الحين انتشرت هذه الفكرة في العالم المتمدن واصبح المفكرون في كل قطر يعتقدون بانه لا غنى لكل شعب عن قانون نظامي مدون اساساً لحياته السياسية وصيانة لحقوق الافراد والمجموع »

« وقد كان من اغراض الثورة الفرنسية ان تنقل الى سائر شعوب اوروبا ما اكتسبته فرنسا من الانظمة الحديثة . فكان الهولنديون اول المقتدين بفرنسا . ولما صار الامر الى نابليون استخدم قوته لتنفيذ هذه الفكرة فأنشأ نظامات دستورية في كثير من الاقطار التي اخضعها ولكن تلك النظامات لم تكن في الحقيقة الا قيودا مقنعة . ومع ذلك فقد ساعدت على توطيد المبدإ الدستوري بين الشعوب ومهدت الطريق

لنظامات اعدل منها واصلح . حتى انه في سنة ١٨١٥ اي على اثر سقوط نابليون كان هذا المبدأ قد سرى بين الجماهير الاروبية وصار الاحرار في كل قطر يعدون الدستور المدون شرطاً ضرورياً للحرية السياسية »

***

« واذا نظرنا الى منشإ الدساتير الحديثة بوجه عام تبين لنا انها تقسم الى اربعة اقسام (١) الدستور الانقليزي وهو فريد في نوعه وقد كان نتيجة التطور التدريجي ومعظمه قائم على التقاليد »

(٢) الدساتير التي صنفها الشعب بنفسه كالدستور الاميركي

(٣) الدساتير التي نجمت عن ثورة كالدستور الفرنسي الاول سنة ١٧٩١

(٤) الدساتير التي منحها الملوك والسلاطين للرعية كالدستور العثماني

« وقد كانت معظم الدساتير الاوروبية التي سنت في النصف الاول من القرن التاسع عشر من هذا الصنف الاخير اي ان الملوك والسلاطين اضطروا الى منحها بضغط الراي العام وسريان المبادي الديمقراطية - فعلوا ذلك خوفاً على تيجانهم وامتيازاتهم على انهم في الغالب حفظوا لانفسهم حقوقا تتلاشى فائدتها او تحصرها في مجال ضيق فكانت منحهم عرضة للاسترداد والتعديل متى شاؤوا ذلك اذ يتهمون الشعب بسوء التصرف وكفى بمثل هذا التهديد مبطلا لفائدة تلك الدساتير »

« على انه بعد عاصفة الحرية التي هبت على اوربا سنة ١٨٤٨ اخذت الشعوب تطالب بحقوقها فسنت معظم الدساتير وفقا لرغائب الاحرار

مما يطول بنا شرحه في هذا المقام . وانما نقتصر على ذكر وجهة التطور العامة التي اتجهت اليها الدساتير الحديثة . فهاك أهم ما يمكن استخلاصه من تتبع التاريخ الدستوري الاوربي :

(١) انه لابد من دستور مدون اساسا لكل حكومة حرة تهتم بمصلحة الشعب لا بمصلحة فئة اوطبقة (هذا بقطع النظر عن انقلتيرا وهي مثال قائم بذاته لا يمكن التشبيه به)

(٢) ان مجرى التطور الدستوري يدل على ان الدساتير الموهوبة او الممنوحة تلاشت بالتدريج لتحل محلها الدساتير القائمة على رغائب الشعوب

(٣) ان الدساتير لم تعد تحسب بمقام اتفاقات بين الملوك والشعوب يتبادلون بواسطتها الحقوق والمنافع بل هي انظمة تسنها الامم لتصون حياتها وتحمي حقوقها وتضمن الراحة لجميع افرادها

(٤) ان تلك الانظمة ينبغي ان تكون مرنة قابلة للتعديل لتماشي الشعب في حياته وتتطور مع تطوره . ولذلك يجب ان تنص الدساتير على الاجراءات والشروط اللازمة لتعديل موادها . والافضل الا تكون تلك الاجراءات والشروط من الصعوبة بحيث يتعذر معها ادخال ضروب الاصلاح التي تقتضيها حياة الشعب واحواله المتجددة على الدوام

(٥) انه ينبغي ان تكون الهيأة صاحبة السلطة على النظام الدستوري غير الهيئة التشريعية المعتادة او على الاقل يجب ان يفصل بينهما على نحو الطريقة المتبعة في الدستور الفرنسي . فان الهيأة الدستورية في فرنسا تتألف باجتماع اعضاء مجلسي النواب والشيوخ معاً خصيصاً لهذا

الغرض (في فرساي) فاذا اجتمعوا على تلك الصورة اصبحوا هيئة دستورية وامكنهم تعديل مواد الدستور »

« هذه خلاصة اختبارات الشعوب الغربية في تاريخها الدستوري. وقد اوجدت الحرب دولا جديدة كثيرة فكان همها الاول انظمة دستورية على النمط الحديث مع مراعاة الاحوال الخاصة بكل منها

المبادي الدستورية الاساسية

تقوم الدساتير الحديثة على بضعة مبادي اساسية هاك اهمها :

(١) سيادة الامة

(٢) الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية

(٣) النظام النيابي القايم على مجلسين تشريعيين

(٤) مسؤلية الحكومة

« وسنبين بالايجاز ماهية كل من هذه المبادي

١ — سيادة الامة

« يقضي هذا المبدأ ان تكون الامة مرجع كل سلطة في البلاد وصاحبة القول في جميع شؤونها الى ان ينظم الحكم لفائدة الرعية لا لفائدة اسرة حاكمة او طبقة خاصة »

« اذ ما الغرض من انشاء الحكومات ؟ ليس ذلك الغرض في الاصل الا تدبر مصالح الافراد والمجموع بتوطيد الامن والراحة والرفاهية. ولذا يقضي العقل بان يكون الشعب نفسه صاحب السيادة على مصالحه. ثم ان الاختبار قد دل على ان الحكم لا يكون ثابتاً قوياً ما لم يدعمه

الراي العام . فلا تصلح القوة الجبرية اساساً لحكم مستديم ولا تثبت حكومة على غير رضى المحكومين »

غير انه لما كان من المحال في الواقع اشتراك الافراد جميعاً في الحكم والتشريع (١) فانهم ينيبون عنهم اشخاصاً معينين يضعون فيهم ثقتهم ويكلون اليهم النظر في شؤونهم – وهو نظام الانابة او التمثيل الشائع الآن في العالم اجمع ! »

« ومن يتأمل احوال الدول الحديثة يتضح له ان حق التصويت ما برح يمتد ويتسع مجالا حتى اصبح اليوم حقاً عاماً لجميع البالغين . بل ان بعض الشعوب قد منحت هذا الحق للنساء ايضاً »

« ٢ – الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية

يرمي هذا المبدأ الى جعل الهيئات التي في يدها السلطة منفصلة الواحدة عن الاخرى (٢) اي ان تعين حدود فاصلة بين القائمين بالوظائف التنفيذية والتشريعية والقضائية . فانه لو اجتمعت مثلا في شخص واحد او هيأة واحدة كلتا السلطتين التشريعية والتنفيذية خشي من سن قوانين استبدادية

---

(١) على ان في بعض الدول نظاما معروفا بنظام الرفرندوم يقضي بان تطرح بعض المسائل الخطيرة في احوال معلومة على الشعب ليبدي رايه فيها

(٢) لا يخفى ان سلطة الحكومة بما تستلزمه للقيام بشوون الامة المختلفة تقسم الى ثلاثة اقسام : السلطة التشريعية وهي المنوط بها سن القوانين التي تراها موافقة للبلاد . والسلطة التنفيذية وهي التي تنفذ تلك القوانين . والسلطة القضائية وهي المكلفة بتطبيق القوانين الداخلية بتوقيع العقاب والفصل في الخصومات

لتنفيذها بطرق استبدادية . كذلك اذا اجتمع القضاء والتشريع فان القانون يصبح عادم القيمة اذ يكون القاضي هو المشترع ايضاً »

ولذلك تقرر مبدأ فصل السلطات وعدّ اساساً للحرية السياسية وقد صدق منتسكيو حيث قال « لا يوقف السلطة عند حدها الا السلطة »

ومن النتايج العملية لهذا المبدإ ان السلطة التنفيذية (اي هياة الحكومة بحصر المعنى) لا تستطيع اصدار قرارت تقضي بتعديل اوالغاء قانون اصدرته السلطة التشريعية (اي المجالس النيابية) كما انها لا تستطيع تعيين عقوبات اوفرض ضرايب او غير ذلك مما يستدعى سن قانون خاص تصدره الهيأة التشريعية ومنها ايضاً ان المحاكم لا تستطيع اصدار احكام عامة تتناول غير القضية المعروضة عليها فانما ذلك من اختصاص السلطة التشريعية ولا تستطيع ايضاً الامتناع عن تطبيق قانون لسبب من الاسباب ومنها ايضاً ان الحكومة لا تقدر ان توثر على المحكمة فيما تصدره من الاحكام ولا ان تناقض حكما صدر من محكمة كما انه ليس للمحاكم ان تحكم على اعمال الحكومة والمصالح الادارية »

٣ ـ النظام النيابي القايم على مجلسين تشريعيين

يراد بالنظام النيابي ذلك النظام الذي تحول فيه الامة حقوق سيادتها لنواب او ممثلين يتدبرون شؤونها ومصالحها بالنيابة عنها . على انك تجد في معظم الدول الدستورية مجلسين نيابيين لا مجلساً واحداً : احدهما ـ ويسمى اصطلاحاً المجلس الاسفل ـ مؤلف من نواب عن مجموع الشعب ينتخبون غالباً بالتصويت العام ؛ والاخر ـ ويسمى اصطلاحاً المجلس الاعلى مؤلف من طائفة من كبار الموظفين والاعيان واصحاب المقامات العالية

ويكون انتخابهم خاضعاً لشروط وقيود معينة وحق انتخابهم عادة محصور وليس عاماً شاملا لجميع طبقات الشعب ؛ ففي انقلترا تجد مجلسي العامة واللوردات وفي فرنسا مجلسي النواب والشيوخ وقس على ذلك سائر الدول

« ورب قائل يقول لماذا لايقتصر الامر على مجلس واحد فتكون اعماله اقرب الى ارادة الشعب وفي ذلك التوحيد اقتصاد في الوقت اللازم للتشريع وتسهيل عظيم للاعمال ؟ فالجواب انه قد ثبت بالاختبار انه لو كانت السلطة محصورة في مجلس واحد لا يلبث ان يستبد بالامر اذ يجد نفسه صاحب الكلمة العليا ولا شريك له في سلطته . اضف الى ذلك ان سن القوانين يستدعى تؤدة واناة ودرساً طويلا وذلك بوجود مجلسين ايسر منه بوجود مجلس واحد »

« ومن المبادي النظرية المعمول بها في المجالس النيابية ان النائب يمثل الامة باسرها وليس يمثل منتخبيه فقط . فالنائب متى انتخب لا يخضع لارادة اولئك المنتخبين بل يكون حراً في انتهاج المسالك التي يراها موافقة لمصلحة الامة وليس لمنتخبيه حق امره او نهيه او عزله »

٤ ـ مسؤولية الحكومة

« يقوم مبدأ مسؤولية الحكومة على ثلاث قضايا وهي ؛

(١) ان الملك اورئيس الجمهورية غير مسؤول

(٢) ان الوزراء مسؤولون

(٣) انه لا يجوز للملك او لرئيس الجمهورية ان يصدر قراراً ما لم

يوافق عليه احد وزرائه ـ وما ذلك الا نتجة عقلية لعدم مسوؤليته ومسؤولية الوزراء

« وهذا المبدأ كسائر المبادي الدستورية ماخوذ عن النظام الانقليزي . فان من الاقوال المأثورة عند الانقليز « ان الملك لايرتكب خطأ فلا يجوز القاء تبعة ما على شخصه »

« اما مسؤولية الوزارة فتقضي بان تحوز ثقة المجلسين النيابيين او على الاقل ثقة المجلس المنتخب بالتصويت العام كمجلس العامة في انقلترا ومجلس النواب في فرانسا . فاذا فقدت الوزارة تلك الثقة اضطرت الى الاستعفاء وخلفتها وزارة اخرى ينتمي اعضاؤها الى الاحزاب صاحبة الاغلبية . والوزراء مسؤولون معاً اي ان الوزارة تثبت او تسقط بصفتها هيأة واحدة اعضاؤها متضامنون مشتركون في التبعة

« فترى من ذلك ان سلطة الملك او رئيس الجمهورية في الدول الدستورية ضئيلة جدا مع انه هو الذي يعين الوزراء . فان حقه هذا مقيد بارادة الهيأة النيابية اذ لو انتخب وزيرا لم يحز ثقة الاغلبية اسقطت الوزارة »

الدستور التونسي

ـ القديم ـ (١)

ان تاريخ تونس السياسي وموقعها الطبيعي من اروبا لايدعانها بعيدة عن الاقتباس من مدنية هاته القارة العظيمة متى تهيات الظروف والاحوال ـ وقد ادرك ذلك المغفور له المشير احمد باي فاعتنى بمجرد

تربعه على كرسي المملكة (سنة ١٢٥٣ هـ) بالنهوض بها واعدادها الى المستوى الذي ينبغي لها بين الامم واهتم بتنظيم القوة برية وبحرية ونشر العلم ومد رواق العمران لا سيما بعد ان زار فرنسا وشاهد مظاهر الرقي والمدنية . فما جاء عهد المقدس المبرور المشير محمد باي (١٢٧١ - ١٢٧٦) إلا وقد تهيأت الامة التونسية لتنال النظامات والاصلاحات التي يتمتع بها امثالها ولم تبق قادرة بلا فرق بين مسلميها واسرائيليها على تحمل الاستبداد الذي كان يسومها به الولاة لذلك العهد - فجنح الباي لادخال تغيير كبير على الحالة القديمة يناسب شعور الامة واستعدادها . وفي اوائل المحرم ١٢٧٤ قدم الى حلق الوادي اسطول فرنسي في تسع جفان فنزل اميره مع اركان حربه وذهب الى المرسى حيث اجتمع بالباي في بستانه بها وقال له : « اني عن اذن سلطاني اتيت بهذه القوة لاعانتك على من يخالف امرك في اعطاء الحرية لرعيتك والامن على انفسهم واموالهم واعراضهم واديانهم وحاشا مثلك ان يغصب على العدل وهو من اصول ملتكم وانت تعلم انه يلزمك ان تكون كالدول وهذا السلطان العثماني نحى منحى الدول المرتبة . واطلب منك تعجيل الجواب ، وان ما اشرت به عليك انفع لسياستك وسياسة دولتنا معك » وفي اليوم التالي لهذا الاجتماع قدم قنصل انكلترة المستعرب على حضرة الباي يحمل مكتوبا من طرف دولته يعضد الاقتراح الفرنسي فاجتمع بالباي وقال في رد ملاحظة بعض من افراد الحاشية الملكية بان الاقتراح المقدم ماس بالدين : « ان اردت دينكم الذي كان عليه سلفكم وبه هدم في ثمانين سنة ما بناه الرومان في ثمانمائة سنة فهو المطلوب منكم وان اردت تلوين

فتاوي الفقهاء على حسب اغراض الملك فمعاذ الله ان يكون هذا دينا وغاية المطلوب منكم اجراء اصول دينكم ويقبح بامة يغصبها على العمل بدينها اجنبي » وخرج القنصل تاركا الوقت للمفاوضة والتروي فجمع الباي رجال دولته ومنهم شيخ الاسلام المرحوم الشيخ محمد بيرم صهره وفاوضهم في اصول القانون والتنظيمات الخيرية وسرعان ما صرح شيخ الاسلام بعدم مخالفة الدين لاصول النظام فاسرع الباي الى القبول ولما لوحظ له ان ما عزم عليه يجعله كمشدود اليدين قال قدس الله روحه : « لاجل نفع الرعية نرضى ان تكون يدي هكذا » وقبضهما الى جنبيه قبضا شديدا. وامر الوزير الشيخ ابن ابي الضياف بانشاء خطاب « عهد الامان » وفي ضحى يوم الاربعاء الموفى عشرين من المحرم ١٢٧٤ هـ ١٠ سبتامبر ١٨٥٧ استدعى الباي سائر اهل المجلس الشرعي واعيان الدولة وامير الاسطول ومن معه من الاعيان وقناصل الدول وكبير الاساقفة والرهبان واحبار اليهود وغيرهم من اعيان الامة وبعد ان اخذ الناس مواقفهم تلي عهد الامان وهو يتضمن احدى عشرة قاعدة اصولية هذا ملخصها :

(١) تاكيد الامان لسائر السكان على اختلاف الاديان والالسنة والالوان في الابدان والاموال والاعراض إلاّ بحق (٢) تساوي الناس في الاداءات بلا فرق بين عظيم وحقير (٣) تساوي المسلم وغيره من السكان في استحقاق معاملته بالانصاف والعدل للتساوي في الانسانية (٤) حق اهل الذمة في التمسك بدينهم واقامة شعائره في كنف الاحترام (٥) تنظيم العسكرية من حيث كيفية التجنيد ومدته (٦) تشريك اهل

الذمة في الحكم على بني جنسهم دفعا لتوهم وقوع الحيف (٧) تاسيس مجلس تجاري مختلط للفصل في القضايا التجارية (٨) تقرير المساواة التامة في الامور العرفية والقوانين الحكمية بين سائر الرعايا من المسلمين وغيرهم (٩) حرية التجارة لكل فرد ومساعدة الدولة على سيرها دون مشاركتها فيها (١٠) حرية الوافدين على المملكة في مباشرة ما شاء وامن الحرف والصنائع في دائرة القوانين المسنونة والتي تسن (١١) حرية الاجانب في التملك والشراء كالاهالي غير خارجين عن التراتيب والقوانين - وهنا يقول الباي : « فعلي عهد الله وميثاقه ان نجري هذه الاصول التي سطرناها . على نحو ما بيناها . ووراءها البيان لمعناها واشهد الله وهذا الجمع العظيم المرموق بعين التعظيم في حق نفسي ومن يكون من بعدي ان لا يتم له امرٌ إلاّ باليمين على هذا الامان الذي بذلت فيه جهدي ، وجعلت سائر الحاضرين من نواب الدول العظام واعيان رعيتنا شهداء على عهدي » - « واستحلف من حولي من هؤلاء الثقاة . والحماة الكماة . ان يكونوا معي في اجراء هذه المصلحة يدا واحدة . بقلوب سليمة متعاضدة » ولما انتهت تلاوة هذا العهد تقدم قنصل فرنسا وترجم قواعده وتكلم كبير الاساقفة شاكرا صنيع الباي ممجدا للعدل ثم ارتفعت الاصوات بالدعاء لحضرة الباي واطلقت مدافع الحصون بهذا الامان وعم السرور كل قاص ودان

ذلك هو القانون الاساسي الذي منحته الامة التونسية فكفل لها الحرية والمساواة وضمن لها حقوقها العامة على ما يقتضيه الحال والزمان في وقت لم تنل مثله عدة امم اروبية

إلّا ان ذلك الباي العظيم لم يتم له مشاهدة نتائج اجراء قواعد دستوره الكبير فمات - في ٢٣ صفر ١٢٧٦ هـ - وفي ٢٥ صفر ١٢٨٦ اجتمع اعيان العسكر ورجال الدولة ووجوه الحاضرة والمجلس الشرعي وقناصل الدول لبيعة ولي عهده وشقيقه المغفور له محمد الصادق باشا باي وقبل تلقيه البيعة اخرج مكتوبا سلمه لكاتب سره الوزير ابن ابي الضياف وامره بقراءته جهرا ليسمعه سائر الحاضرين ونصه « بسم الله الرحمان الرحيم تبارك من جعل الامان اقوى اسباب العمران والصلاة والسلام على سيدنا محمد وءاله وصحبه ومن تبعهم باحسان اما بعد فيقول العبد الفقير لربه المشير محمد الصادق باشا باي وفقه الله لما يرضاه واعانه على ما اولاه انى اقبل البيعة من الاعيان الحاضرين على مقتضى ما وقع الالتزام به في العشرين من محرم سنة ١٢٧٤ من المرحوم المقدس اخينا المشير محمد باي وهو عهد الامان لسائر السكان على الاعراض والاموال والابدان وما حواه من القواعد اللوازم والاركان وحلفت واحلف بالله وعهده وميثاقه على مقتضاه وان لا اخالفه ولا اتعداه وهذا الكلام صدر مني ونقله الناطق به عني وختمي وخطي فيه اقوى شاهد واوضح اعلان . لكل ما حواه هذا الديوان . وسائر الرعية والسكان . وعلى مقتضاه عليكم السمع والطاعة . ويد الله مع الجماعة »

وبمجرد مباشرته لمصالح المملكة امر بتطبيق اصول ذلك الدستور فانشئت - سنة ١٢٧٧ - مجالس عدلية في اهم الجهات يتركب كل مجلس منها من رئيس وخمسة اعضاء وكاتبين للفصل في سائر القضايا حسب القوانين التي حررت لذلك - (خلافا لما يزعمه بعض الموظفين

الكبار الذين نسوا او تناسوا التاريخ التونسي الحديث مدعيين ان العدلية التونسية لم تخلق إلاّ بعد الاحتلال) واسس مجلس اعلى بالعاصمة يتركب من ستين عضوا نصفهم بالانتخاب العام والنصف الاخر باختيار الحكومة الذي كان مجردا عن الغرض ـ فكانت القضايا تنشر لدى تلك المجالس الابتدائية وتستانف للمجلس الاعلى . فباد الظلم والرشوة وساد العدل والاطمئنان اذ صار العظيم والحقير يقفان امام تلك الهيئات الحكمية في منزلة واحدة وبحقوق متساوية ـ ولم يكن النظر في النوازل المستانفة هو كل عمل المجلس الاعلى فقد كان ينظر ايضا في مصالح البلاد والشورى ـ ولم يقف الامر عند هذا الحد في اجراء الاصلاحات التي تضمنها الدستور فانه انشيء مجلس ثالث دعي المجلس الكبير يتالف من رجال الحكومة وبعض اهل العلم واعيان الامة تحت رئاسة سمو الباي للقيام بمهمة التشريع وغيره ـ وقد استوجب اجراء تلك الاصلاحات المهمة تهنئة نابليون الثالث لحضرة الباي عليها اثناء اجتماعهما بمدينة الجزائر

إلاّ ان تلك النظامات الشرعية لم تلبث ان تعطل سيرها الطبيعي بسبب اضطراب المالية وثورة بعض القبائل (سنة ١٢٨٠) بدسائس ذوي الاغراض ـ فلما تولى خير الدين خطة وزير مباشر (١٢٩٠) اخذ يسعى بكل قواه في تنظيم المصالح الادارية وسن القوانين ونشر المعارف ليبني الدستور على اسس اضمن لحياته . وقد تم على عهده ما لا تنساه له المملكة التونسية من المشاريع العظيمة التي لا تزال تجني ثمرتها . غير ان هذا المصلح الكبير قامت في طريقه عقبات لسوء الحظ اضطرته لترك منصبه (سنة ١٢٩٤)

ان ذلك الدستور وان لم يكن كالدساتير المعروفة اليوم فقد تضمن كثيرا من اصولها اذ قيد سلطة الملك وجعل بجانب الحكومة نوابا انتخابيين عن الامة وضبط الشؤن بقوانينها واعطى حرية التجارة والتملك وحفظ الحقوق الشخصية وفصل بعض الفصل بين السلطات وقرر مبدا المساواة والعدل

(٢) الحديث

استعرت الحرب الكبرى فاعلن المتحزبون بانها حرب تحرير الشعوب والانسانية والقضاء على السلطات الجائرة تقريرا للسلم ودفاعا عن سعادة البشرية فلبى نداء فرنسا خمسة وستون الفا من التونسيين جرح وقتل منهم خمسة واربعون الفا . وقد كانوا يسمعون في آن واحد بصفوف القتال وخطوط النار الثناء الجزيل من ضباطهم المعتبرين على شجاعتهم الكبرى وبذلهم ارواحهم بمنتهى الاخلاص امام العدو العام لمصلحة فرنسا والمدنية . والوعود الا كيدة بتحويل حالتهم وتقوية حركة نهوضهم على اثر انتها الحرب

فلما تم مقصود المتحزبين من انتصار الحرية على الاستبداد والحق على الباطل وعقدت الهدنة في ١١ نوفامبر ١٩١٨ مكثت الشعوب الصغرى ومن بينها الشعب التونسي تنتظر حظهامن ذلك الانتصار وتترقب جزاءها على المناصرة حسبما تلقته من الوعود الرسمية التي زادتها شروط ويلسن الشهيرة ثقة بها واطمئنانا . ورات من الواجب ان تبعث بوفودها الى باريس ملجأ الاحرار ومجمع الموتمر الذي اخذ يفصل في حظوظ الامم والشعوب لتبسط رغائبها لدى الامة الفرنسية الحرة

فبعثت الامة التونسية « في جويليه ١٩١٩ » الى باريس الاستاذ الخبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي ليعرف الشعب الفرنسي الكريم بالشعب التونسي الذي آخاه في ساحة الوغي اذ كان لايعرف عن شؤنه لذلك العهد إلاّ اليسير الحقير ويبسط للحكومة الفرنسية خاصة حالة هذا الشعب الاسيفة تلقاء النظامات الحالية التي يعيش في وسطها ويبين لها حاجته الى اصلاحات تضمن حقوقه وحرياته وتكفل له المساواة والعدل اللذين تقتضيهما حياته الاجتماعية . فضل يتعرف الى الاحرار ويشرح لهم مهمته وينشر الفصول في ذلك بالجرايد البارسية الكبرى بدون نكران للمعاهدات والاتفاقات بين حكومتي الشعبين حتى تمكن بما اوتيه من قوة العزيمة والحنكة (رغماً عن عدم اتقانه اللسان الفرنسي) من تكوين انصار كثيرين من اكابر الصحفيين والكتاب الفرنسيين للقضية التونسية فعقدت في شانها الاجتماعات الكثيرة وحررت المقالات الرنانة بما بلغ صداه مُعظم انحاء العالم وعرفنا بذلك والحق يقال انه يوجد بين ذلك الشعب المتمدن رجال بلغوا من سمو التربية وعلو النفس وشرف الاحساس ما يحملهم على الجود بقوتهم الادبية واوقاتهم النفيسة في سبيل خدمة الضعيف وتمكينه من حقوقه الطبيعية لا لجزاء يرجونه بل اجابة لنداء صوت الضمير الطاهر والوجدان الحي - ومن اولئك الابطال الاعزاء مسيو دي شانبون صاحب المجلة البرلمانية الذي حبر المقالات العظمى في طالع مجلته الغراء انتصاراً لرغايب التونسيين حتى حجر دخولها لتونس وعطلت جريدة المشير التونسية من اجل ترجمتها لاحد فصولها ومسيو بيرتون النائب بمجلس الامة والمحامي الشهير الذي ضحى جزءاً

عظيماً من وقته لخدمة تونس والتونسيين وناضل في كل فرصة وبغيرة شريفة عن مطالبهم الشرعية . ومسيو شارل لوبوك النائب بمجلس الامة وصاحب جريدة الوفاق الذي تفضل بزيارة المملكة التونسية ليطلع على ما تحتاجه من التنظيم والاصلاح وعقد للوفد التونسي الاول بباريس اجتماعات استحضر لها كثيرا من المفكرين واصحاب الوجدان الحر - وغيرهم من المطهرين من وصمة التعصب الجنسي ودنس حب الذات والانانية فصاروا لايعرفون غير جامعة الانسانية »

« وبعد ان تمهد السبيل بتلك الاعمال اوفدت الامة التونسية بصفة رسمية في جوان ١٩٢٠ الى باريس وفدا يتركب من خمسة اعضاء تحت رئاسة النابغة الاستاذ احمد الصافي لتقديم المطالب التونسية التي نضجت لذلك العهد الى وزارة الخارجية وبيان تأكد تحقيقها لسعادة كافة سكان الايالة التونسية . فقبل لدى جمعية حقوق الرجل والجمعية الاسلامية الفرنسية لافرقيا الشمالية وغيرهما وكانت كل جمعية تعترف في النهاية باحقية تلك المطالب وترسل تقريرها في معاضدتها للحكومة والفضل في ذلك لمقدرة الوفد البيانية واستعداد رجال الجمعيات الشريف كما قبل من جناب رئيس مجلس الامة صحبة عدد من النواب الاحرار وسلمه عريضة الشعب التونسي ومن لجنة بلاد الحماية بمجلس الامة حيث دارت مناقشات طويلة ابان فيها رئيس الوفد عن استحقاق الشعب التونسي المخلص لمثل تلك الظمانات

- واخيراً قبل بوزارة الخارجية وبلغ مثل تلك العريضة - فازدادت

المسألة التونسية بعد ذلك انتشاراً وانصاراً . وهذا نص المطالب التي حوتها العريضة المشار اليها ؛

ـ ١ ـ مجلس نيابي منتخب بالانتخاب الحر يتركب من التونسيين والافرنسيين

ـ ٢ ـ حكومة مسئولة للمجلس المذكور

ـ ٣ ـ التفريق بين السلط الثلاث

ـ ٤ ـ حريات القول والاجتماع والنشر والبيوت الخ

ـ ٥ ـ انتخاب الاعضاء البلديين انتخاباً حراً

ـ ٦ ـ التساوي في المرتبات

ـ ٧ ـ المشاركة التامة في جميع الوظائف

ـ ٨ ـ توزيع اراضي ادارة الفلاحة على الفرنسيين والتونسيين بدون ميز ولا محاباة

وفي ١٨ جوان ١٩٢٠ على اثر وصول الوفد لباريس حضى وفد مؤلف من ٢٨ عضوا من سائر الطبقات التونسية بالمثول بين يدي حضرة سمو الامير الجليل سيدنا « محمد الناصر باشا باي »

فالقى لدى جلالته سعادة رئيسه العالم المفضال الاستاذ الشيخ محمد الصادق النيفر خطابا في رغبة الامة التونسية في تاسيس دستور على مقتضى النظامات العصرية وكانت نالت منه شيئاً مهماً على عهد والده وعمه المقدسين المحترمين . وسلمه نحو تلك العريضة الممضاة من آلاف من افراد الامة . فلقي من لدنه ما يلقاه وفد امة من ملك شهم غيور عظيم بما رددت صداه جرائد باريس الكبرى .

الا ان الحزب الاستيشاري بتونس كان ينظر الى تلك الحركة السلمية

الشرعية بعين ملؤهـا الغضب وفؤاد حشوه الحنق اذ يرى انها ترمي الى ان يعيش مـع اخيه في الانسانية والوداد تحت سماء تونس الجميل وفوق تربتها الكريمة بحقوق واحدة وقانون واحد مما يقضي على مطامعه الاشعبية وشرهه النادر في حب الذات واستعباد العباد فاخذ يبذل قصارى جهده في تلويشها وصبغها بغير صباغها الحقيقي سواء في جرائده او مجتمعاته حتى كانت النتيجة القاء القبض بباريس (٦ اوت ١٩٢٠) على الشيخ عبد العزيز الثعالبي وجلبه الى وطنه مكبلا بالحديد رغم كونه مبعوث امة ورغم تصريحات الوفد بطهارة مقاصد التونسيين وبعدهم عن العداء لفرانسا التي يقدرون ما ادخلته لبلادهم من الاصلاحات والنظامات . وقد بقي ذلك الشيخ الكبير في اعماق السجون حتى اليوم ولا يعلم واحد للان السبب المبرر لايقافه بل اردف ذلك في ٣٠ اكتوبر ١٩٢٠ بالقبض على الشيخين صالح بن يحي ومحمد الرياحي بتهمة المؤامرة ضد امن الدولة الا ان المحكمة العسكرية لم تر اهمية لتلك التهمة بعد البحث تقتضي مزيد الشدة فاملى عليها صوت العدل طلق سبيلهما بعد شهر ونيف

الا ان تلك التدابير وتلك الجلبة الاستعمارية لم تحرم الحركة التونسية الوقع الجميل في نفوس العقلاء على اختلاف اجناسهم فخرج ثلاثة اعضاء من القسم الفرنسي بالمجلس الشوري تذمرا من نظامه الحالي وابى الاقتراع منهم اخيرًا على الميزانية نحو العشرين ـ واشعر سبعة من الاعضاء التونسيين الحكومة بثقل المسؤلية المحمولة على عاتقهم بلا وجه قانوني الى غير ذلك من شواهد حسن الوقع

وبما ان نقابة المعمرين التي مركزها بباريس استدعت جناب مسيو

لوسيان سان المقيم العام الجديد وفاتحته الكلام في شان المسألة التونسية مع قرب ابان بسطها لدى مجلس الامة

رات الامة التونسية ان تجهز وفدا ثانيا لباريس لتحية جناب العميد الجديد وتعريفه اجمالا بالحالة التونسية ثم العمل على منوال الوفد الاول في شرح المسالة واستنجاد الاحرار لنصرتها فسافر في اواخر ديسامبر السالف مؤلفاً من ستة اعضاء تحت رئاسة البارع الهمام السيد الطاهر بن عمار. وقد قبل من جناب المقيم ثم من سعادة رئيس الوزراء بكل حفاوة واكرام وتلقى تصريحات بعثت في نفسه ايما اطمئنان ـ والمظنون ان جناب العميد الجديد مكلف بتحرير تقرير في الموضوع بعد البحث والاختبار يكون اساس المذاكرات التي تدور في شانه بباريس ـ ولا شك ان الصفات التي نعتوا بها هذا الرجل العظيم من الحزم والتبصر وحرية الظمير ستجعله يجري اختباره بغاية التدقيق والخلوص من الشوائب فيرى ان الفكرة الدستورية اصبحت عمومية وان اختلف الناس في التعبير عنها ويعمل لمستقبل هاته الامة الذي اصبح بين يديه فيخدم فرانسا والانسانية

ان الانسان اذا ما خلا بنفسه وتجرد عن جميع البواعث والاغراض واستملى عقله فكرة ينظر منها الى مستقبل هاتيك الحركة المستورية يرى: « ان مهمة فرانسا التي جاءت بها الى تونس تمدينية فهي تحبذ كل ما يساعدها عليها ـ وان شعارها الذي اسسه ابطال ١٧٨٩ ـ (الحرية والعدالة والمساواة) ـ وان تاريخها مملوء بفخر الانتصار للمهضوم (بلجيكا والولايات المتحدة وبولونيا وغيرها) ـ وان التونسيين برهنو في بحر الخمسي قرن

على اخلاص ورشد جديرين بانعطافها ـ وان كثيرا من الشعوب الاروبية وغيرها لا تفوقهم في المميزات التاريخية والاجتماعية والادبية قد نالت النظامات العصرية ـ وان اخوة الانسانية الصريحة تقتضي الفزع لصوت الحق ومصلحة البشرية ـ وان التونسيين لم يطلبوا الانظاما اجتماعياً يضمن سعادة كافة السكان بدون ميز ولا مساس له بالمعاهدات الدولية ـ وانهم تألموا مع فرانسا في الحرب الكبرى ليعيشوا معها فيما بعد على اكمل مايكون من التوادد والصفاء والتعاون ـ وانه ليس من المعقول ان يعامل احد متجاورين بقوانين استثنائية ـ فيستنتج من ذلك ان الامة التونسية بالغة امانيها الشرعية وسائرة نحو مستقبل بهيج والمستقبل لله »



مبرات الاجواد

اخذت همم الامم الشرقية تتجه نحو القيام بالاعمال الجدية العامة للمحافظة على كيانها والضرب بسهم في معترك الحياة واكثر هذه الامم عملا واقواها عزيمة في الجهاد الوطني الامة المصرية النبيلة .

واننا ننشر بكل اعجاب على صفحات « الفجر » العمل الفاخر الذي قام به اخيرا احد وجهاء الامة المصرية وهو « علي فهمي بك » تخليدا لمبرات هذا الجواد وايقاظا لهمم السراة والاغنياء التونسيين . والى القراء نص ما نشرته جريدة الاخبار واقتبسناه من « الصاعقة »

« تلقت وزارة المعارف العمومية من علي فهمي بك نجل المرحوم علي فهمي باشا المهندس المعروف كتابا فحواه انه اوقف جميع املاكه وخصصها (اي وزارة المعارف) من هذا الوقف في كل عام بثلاثة آلاف جنيه مشترطا في ذلك ان تنفق هذا المبلغ على تاليف ارسالية من الطلبة توفدها الى اوروبا للتخصص في مختلف العلوم والفنون التي تفتقر اليها البلاد وتسميها « الارسالية الفهمية » وان تكون هذه الارسالية مولفة على الدوام من ٩ طلاب

وقد هزت هذه المكرمة الشاعر النابغة الفاضل احمد افندي نسيم فقال

زينَ الشاب وفخرَ طلاب النهى ✲ واجل من تخذ القلوب مقاما
سطعت من التاريخ فيك صحيفة ✲ اسدت لك الاجلال والاعظاما
يا واهب الآلاف حسبك رفعة ✲ زادت علاك على البدور تماما
لو انهم وهبوك اوسمة العلى ✲ لم تعط غير النيرات وساما
كم في البرية من شحيح موسر ✲ امواله باتت عليه حراما
انظر لقوم « الغرب » كم وهبوا وكم ✲ هزوا بجود اكفهم اقواما
ملات سراتهم الحياة عوارفا ✲ وسراتنا ملاوا الحياة كلاما

قجزاك ربك يوم سدت كهولهم ☆ وبلغت منزلة النجوم غلاما
اني رأيت المال حصنا قائما ☆ والعلم في كف الشعوب حساما
واحق بالاجلال شعب ناهض ☆ بالعلم شيد مجده واقاما
« واحق بالاذلال شعب خامل ☆ ترك الجهاد الى العلاء وناما »

☆ ☆ ☆

اعلي ان النيل ماطال المدى ☆ يهدى اليك تحية وسلاما
تالله لو ان القريض قلائد ☆ نسقت من درر القريض نظاما
ونثرت اطيبها عليك مفاخراً ☆ بجميل ابلج طوق الايام
وهززت منك فتى المعارف مثلما ☆ هز « الفرزدق » بالمديح « هشاما »
جود (ابن امامة ١) بعد جودك هزمة (٢) ☆ ونداك كان من السحاب ركاما (٣)
ان الكريم اذا تهلل للندى ☆ كانت مآثر راحيته كراما
احييت نشأ النيل حتى انهم ☆ تخذوا المجرة والسماك زماما
كم زهرة في ارض مصر بحاجة ☆ لندى اغر يفتح الاكمام
واذا اردت الناس ان يتقدموا ☆ فانهض كريما بينهم مقداما
واملك ازمتهم بمختلف الجدى ☆ تصبح مثالا للجدى واماما

---

(١) هو كعب ابن امامه من اجواد الجاهلية (٢) الهزمة . السحابة الرقيقة لا ماء فيها (٣) الركام . السحاب المتراكم بعضه فوق بعض لكثرة مائه

الاكتشاف والاختراع

داء السل

مقاومته بالمواد الكيماوية

لا يخفى على احد الاهمية العددية للانفس التي ماتت ولازالت تموت كل يوم ضحية هذا الداء المزمن الفتاك ألا وهو - داء السل - عافى الله الجميع من بلواه . فان عدد الوفيات التي وقعت بسبب تلك الجرثومة الخبيثة المسماة بجرثومة « كوك » يفوق عدد اموات اي حرب من الحروب الكبرى مهمى كانت قوة التهاب نيرانها

فهذه الجرثومة اللعينة التي اعيت مقاومتها فكر فحول الحكماء وصيرت اختراعاتهم العديدة قليلة الجدوى ازداد بطشها بالجنس البشري قوة وتمكنا حتى اصبح اليوم امر مقاومتها حجر عثرة في سبيل الحكماء وعقبة كؤودا في طريق العلماء فكثرت الاراء واتسعت المباحث في كيفية تلك المقاومة

واحسن اكتشاف حصل اخيرا ويؤمل منه كامل النجاح لازالة خطر هذا الداء الوبيل . ما ثبت من ان هذه الجرثومة « كوك » لا يمكن استقرارها بالجسد واحداث داء السل به إلاّ اذا حصل تغيير في تركيبه الكيماوي ونقص منه جانب عظيم من المواد المعدنية . ومن المحقق ان هذا النقص يحصل في المادة « الكلسية » ويحصل في مواد اخرى معدنية لم تزل مجهولة الى الآن وان نقصها يصير الجسد قابلا لتلقي هذا المرض ،

وبذلك حصل اليقين بان علاج « السل » يكون بتعويض نقص المـواد المعدنية الداخلة في تركيب ـ الخلايا ـ الجسدية

فاذا عوض ذلك النقص وصار تركيب البدن من حيث موادة المعدنية معتدلا تتمكن اذ ذاك ـ الخلايا ـ من مقاومة جرثومة « كوك » وتفسد سمها وبالتالي تتغلب عليها وتقتلها

لذلك بذل بعض الحكماء مجهوداتهم لاستحصال مواد كيماوية من الاملاح الموجودة في الارض تكون موفية بالغرض وغـير مضرة بالجسم وما حصل الآن من النتايج حسن مبشر بالنجـاح التام وانتصار العلم على هذا العدو الالد

الامـواج الكهربائيـة

اختراع اخيرا تطبيق جـديد للتموجات الكهربائيـة المعبر عنها بتموجات ـ هرتزيان hertzienne .

وهذا الاختراع يمكن البواخر رغما عن وجـود الضباب ان تسير بسلام في الطرق المخطرة من غير ادنى عايق . وقد وقعت تجربة هـذا امام وزير البحرية الفرنساوية اثنا. تجوله بيريست (١)

وخـلاصة هذا الاخـتراع هو ان يغمس سلك بالبحر متجه نحو الطريق التي يتحتم على البواخر سلوكهـا في النقـط المخطرة للتـوقي من كل حادث وبيل . ويكون بالسلك المذكور سيال كهرباءي «متبادل السيل» فتحدث منه تموجات كهربائية متقطعة فتلتقط تلك التموجات

(١) مرسى حربية بفرنسا

آلات بسيطة على الباخرة المارة وقت الضباب في الامكنة المخطرة . وبواسطة خوذة(١) بهاسماعة تليفونية يمكن رسم اهتزازات تلك التموجات فشدتها تدل على قرب الباخرة من السلك اي من الجادة المامونة من الخطر وضعفها يدل على بعد الباخرة عن طريق السلامة

مطبوعات جـديدة

لسان الشعب ـ جريدة سياسية ادبية تصدر بحاضرة تونس يوم الثلاثاء من كل اسبوع لمدير سياستها وصاحب امتيازها وطنينا المهذب الاديب السيد البشير الحنفي بنهج سيدي الصوردي عدد ١٢ بتونس.

برز العدد الاول منها شاملا لمختلف الاخبار . مزدانا بالوقايع التاريخية وعيون الانباء بلهجة وطنية وغيرة قومية وانا نرحب بالرصيفة الجديدة ونتمنى «للسان الشعب» دوام قوة البيان

(١) غطاء الراس وقت الحرب

حوادث الشهر

يظهر لكل من يطالع الجرائد الاوروبية على اختلاف مشاربها ان الحالة السياسية هناك على غاية من الارتباك لتشعب وخطورة المسائل الاجتماعية والاقتصادية والمالية التي لم تفصل لحد الآن بالرغم عن المجهودات التي بذلها وما زال يبذلها اولو الحل والعقد بالممالك الغربية ذلك لان الاراء لم تتفق على اتباع مسلك واحد لحل هذه المشاكل العظيمة فهذه قضية نزع السلاح من القوات التي استبدلت بها المانيا قسماً من جيشها القديم والتزمت في اتفاقية سبا بحلها قبل جانفي ١٩٢١ اقوى دليل على تباين المبادي بين الدول المتحزبة اذ كل وزارة ترى انهاء الامر بصورة مخالفة للاخرى وقد تناقشت الصحف الفرنساوية والانجليزية في هذه المسألة طويلا وحرضت بعضها حكومة الجمهورية على اكراه المانيا على تنفيذ هذا الالتزام ولو ادى ذلك الى احتلال مقاطعة الروهر المشهورة بمناجمها الفحمية غير ان الحكومة لم تقدم على هذه العملية الخطيرة لما تتوقعه من تاثيرها في عالم السياسة الخارجية خصوصا وان الممالك المتحدة صرحت على لسان قادتها انها لا ترضى بتوسيع الاحتلال في المانيا على هذه الصورة وان المانيا اعتذرت على عدم امكان حل تلك القوات في الوقت الحاضر بالخطر البلشفيكي الذي يهدد حدودها الشرقية ومساعي احزاب الاشتراكيين المتطرفين داخل المملكة وهو عذر وجيه وان لم يوجب في نظر السياسيين الفرنسيين ابقاء قوات حربية عظيمة كالتي تحاول جرمانيا المحافظه عليها الان واذا اضفنا الى هذا المشكل المهم المسائل السياسية والاقتصادية الاخرى التي تحتم فصلها نهائيا خوفا من تفاقم الارتباكات الناشئة عنها وتكاثر الناقمين على النظام الحالي من الطبقات الاروبية الفقيرة نعلم صعوبة تسوية الامور التي ستدور عليها مناقشات رؤساء الدول المتحزبة بباريس عما قريب ومن اكبر هذه المسائل مسالة

الشرق التي ارجيء النظر فيها الى اليوم ولا يخفى ان التوفيق في شأنها بين نظريتي فرنسا وايطاليا من جهة وانقلترا من اخرى ليس بالامر الهين حيث ان كلا من الشقين متحيز لفكرة خاصة به - فانقلترا تود تنفيذ معاهدة سيفر مهما كان ثقلها على كواهل العثمانين غير مكترثة بالجور والعسف اللذين جاء بهما هذا الاتفاق القاسي ولا بالتاثير الشديد الذي حصل منه في قلوب المسلمين. بينما فرنسا وايطاليا تحاولان تنقيح شروطه الفتاكة بما يتيح للدولة العلية حياة مستقلة شريفة كبقية الممالك الاخرى وهو امر لا يمكن تحقيقه ما دام اليونان ضاربا في تراكيا الشرقية وولاية ازمير وما دام جيش واسطول بريطانيا العظمى مقيمين بالاستانة إلاّ انه يظهر من قرائن الاحوال ان انقلتيرا لا تنوي مبارحة ضواحي البوسفور ومرمره لمجرد مراعاة المصلحة العامة واحترام حقوق الامم ما لم تجبرها على ذلك عوامل اخرى لا دخل لها في عامل العواطف والاحساس ومن اقواها امتداد سلطة البلشفيك الى الشرق الادنى وانضمام الاتراك لسياسة السوفيت وهذا ما يجب ان تتلافاه مهرة رجال خارجيتي فرانسا واطاليا قبل فوات الوقت . واصبح من اكبر ما يقوم به ممثلو الدولتين المذكورتين في مؤتمر باريس اقناع مندوبي حكومة انكلترا بالعدول عن سياسة الشدة والانتقام التي سلكتها مع الاتراك وبقية الاقوام الاسلامية باسيا ومراعاة حقوق الدولة العثمانية التي عبثت بها اولا لارضاء احقادها الدينية وثانيا لاستمالة اليونان الذين كافوها على صنيعها هذا باستقدام ملكهم المخلوع قسطنتين

وعلى كل حال فاننا لا نظن ان الانجليز بالرغم مما عهدناهم عليه من التعنت والعناد يصرون على اقرار هذه السياسة الممقوتة لاسيما وقد انتشر في الهند الهيجان الذي اشرنا له في العدد السابق بسرعة مخيفة ومالت غالب الاحزاب هناك الى اعتناق مذهب الوطنيين وازدادت حالة الممالك المجاورة لتلك السلطنة

المترامية الاطراف تحرجا وارتباكا واتسع نطاق الثورة العراقية بكيفية قضت على الحربية البريطانية بتعزيز القوات الضاربة بهاتيك الديار

وزيادة عما تقرر فان حالة انكلترا الداخلية وتفاقم مسالة ارلاندا وتقوي حزب العملة كل ذلك يوجب عليها مداركة المسالة الشرقية واصلاح الغلط الفادح الذي ارتكبته وبالجملة فمصلحة انكلترا الخاصة ومصلحة اوروبا عموما يقضيان عليها بالانصياع لسياسة العدالة والتحرير المثلى حتى يعود السيف لغمده والسلم لنصابه



تنبيه

المرغوب من السادة المشتركين في مجلة « الفجر » ببلدان المملكة وخارج البلاد التونسية ان يوجهوا معلوم الاشتراك بحوالة بريدية او على طريق بنك « الكونتوار دي اسكونت » باسم رئيس تحرير المجلة المحامي « احمد الصافي » بشارع باب البنات عدد ٤٦ بتونس ولهم الشكر والامتنان

Le Gérant Ali ben Mokhtar Kahia